الهوية

- الشيخ صباح السالم .. أمير التحديث ورائد المأسسة
- عبدالحميد البسيوني .. أضاءت له الكويت فقدَحَ لها
- أزمة الهوية في المجتمعات العربية المعاصرة
- الهوية القومية بين مطرقة الخارج .. وسندان الداخل

ندوة العدد:

ظاهرة العنف المدرسي .. بين الجذور والفروع

ISSN: 1728 - 5135

مجلة دورية تصدر عن الديوان الأميري - مكتب الشهيد - دولة الكويت

الهوية

المشرف العام
د. جاسم يوسف الكندري

رئيس التحرير
تركي أحمد الأنبعي

مديرة التحرير
فايزة مانع المانع

سكرتير التحرير
عماد منصور المنصور

إخراج وتنفيذ
فهد الجاسم

المراسلات
باسم رئيس التحرير
مكتب الشهيد - اليرموك
ص.ب 28171 الصفاة 13158
دولة الكويت
هاتف: 5341657 - 5341658
فاكس: 5321105

الهوية في سطور

مجلة دورية تعنى بتخليد شهداء الكويت، وتهتم بالقضايا الوطنية والخليجية، وتهدف إلى تعميق الانتماء الوطني وترسيخه.

إن الهوية ضرورة حياة، وضرورة وجود، والالتفاف حولها عنصر بقاء وأمان لهذا الوطن، لأنها الحبل السري الذي ربط بين الشهيد وأرضه، ومن أجلها قدم نفسه ودمه ليخلد في سجل الشرف.

إن الهوية - كما نراها في المجلة - مشروع طموح ومتطور، يتعلق بالمستقبل أكثر من تعلقه بالماضي، لأنها في النهاية ما يجمعنا ويوحد بيننا، فهي العنصر الحاسم في صراعنا مع من لا يريدون لنا أن نكون.

ضمن رحلة آباء الشهداء مع مكتب الشهيد، والد شهيد ولحظة تأمل في متحف عنيزه للتراث في المملكة العربية السعودية الشقيقة.

الهوية
تصدر كل شهرين عن الديوان الأميري، مكتب الشهيد، دولة الكويت - الغرسة السابعة والثلاثون - ٢٠٠٤

المحتويات

• بصمتنا	هذا زمن الهوية	بقلم: فايزة مانع المانع	ص ٤
• السور الرابع	الشهيد ابراهيم عبد الله السبيعي		ص ٦
• من شهداء الإسلام	عبيد بن الحارث	طارق البكري	ص ٨
• عرض كتاب	الشيخ صباح السالم الصباح	رابعة بركات	ص ١٠
• ندوة العدد	العنف المدرسي في الكويت ظاهرة خطرة	إعداد وإدارة: صالح العاقل	ص ١٢
• مقال	أزمة الهوية في المجتمعات العربية المعاصرة	أ.د. علي سعد وطفة	ص ٢٠
	الهوية القومية بين مطرقة الخارج وسندان الداخل	د. عبد الله الجسمي	ص ٣٦
	حوار المخابر... والمناظر	د. نسيمة الغيث	ص ٤٩
• مؤتمر	الأوضاع الراهنة في العراق	متابعة: عماد منصور	ص ٢٤
• من شهداء العروبة	الشهيد ناجي العلي	عماد عقيل	ص ٣٠
• قرأت لك	«هوية الإنسان»...	أ.د. الزواوي بغورة	ص ٣٢
	سهى بشارة	عواطف الزين	ص ٤٦
• شخصيات	عبد الحميد بسيوني	منصف حمزة	ص ٣٩
• حوار	د. رضوان السيد	حاوره: عبد الله بدران	ص ٤٢
• تراث	قصص من التراث	د. فايز الداية	ص ٥٠
• من مكتب الشهيد	المخيم الربيعي الثاني عشر	متابعة: دلال الفهد	ص ٥٢
• من رموز الحرية	رابندرانات طاغور	علي المسعودي	ص ٥٦
• شعر	أميرة حزني	شعر: سامي القريني	ص ٥٩

هذا زمن الهوية

«حاجز اللغة سيسقط وسيجد العالم وسيلة مشتركة للتفاهم...».

هذا ما صرّح به أحد فرسان العولمة، بما يعني انهيار المسافات وإلغاء الفروقات وتجانساً شبه كامل في منظومات جوهرية تُشكل لب ومضمون أي فرد وأي مجتمع، على اعتبار أن اللغة هي المحتوى الأساس لنسق القيم والوعاء الأكبر للثقافة.

فهل هذا ممكن؟ وما مدى معقوليته؟ وما هي درجة سعي العالم نحوه؟ وكيف؟

أسئلة متفجرة عسيرة الإجابة، بل إن تأملها والتفكير فيها بشدة يزعج، وأحياناً يخيف. لكن الوقوف منها موقف الرافض يشبه الوقوف موقف المحايد، كلاهما عاجز عن تقبل الحقيقة... حقيقة تغير كل شيء، وحقيقة الانفتاح على كل شيء...

بقلم:
فايزة مانع المانع
مديرة التحرير

حقيقة طغيان إعلام مدو، تتردد أصداؤه في كل أنحاء الكرة الأرضية، ولا يفلت من أثره حتى من أصمَّ أذنيه، وآثر سكنى الجبال.

وحقيقة تفجر معلوماتي وتكنولوجي، لا يعرف الهوادة، يتدفق في كل اتجاه، حتى ليُصاب في لجّته المرء بالحيرة وأحياناً بالذهول، لدرجة أن أحد المفكرين العرب سارع بنصح طلابه لتقبل واقتناء المعرفة الجديدة والسرعة بالتخلي عنها، ففي كل يوم يولد شيء جديد - على حد تعبيره - وحتى يبدو الجميع على إيقاع واحد مع العصر.

وفي خضم زمن كهذا، من أين يبدأ التأثير؟ وعند أي حد يجب أن يتوقف؟ وما هي حدود اندماج الهويات، وهل انتهى زمن

الخصوصية؟!

هل سقطت صفحات التاريخ ولم يعد لماضي الأمم أية أهمية، بذريعة أن كل الأهمية لواقعهم اليومي، ودرجة قدرتهم على التأقلم مع ما يحدث وما يتقافز فيه من مستجدات؟

إن ما يبعث على الاطمئنان أمام كل هذا الصخب وهذا الضجيج، تلك العروق الممتدة التي نمتلكها كأمة، وذلك التواجد الكثيف الذي لا يمكن إذابته... تلك الحيوية المتسعة باتساع شعوبنا وتاريخنا حتى أن دعاة العولمة الجدد أضافونا إلى تلك الشعوب التي لن تتهدد هويتها ولن ينقرض لسانها، وستظل على ثباتها، يحميها دين راسخ، وتاريخ عريق.

وعلى افتراض أن المجابهة بين الهُويات حتمية كما يتخوف الكثيرون، فليس ثمة تناقض بين الحفاظ على الاستقلال الذاتي وبين الانخراط ضمن الأنماط الجديدة التي يتوحّد العالم باتجاهها، خاصة إذا كان الهدف منها إنسانياً ونبيلاً ولمصلحة الجميع.

ولو استطعنا أن نحصر الإيجابيات التي سينعم بها العالم، لوجدنا الكثير مما ينبغي أن نحرص عليه كأفراد وجماعات، فمن تطور اقتصادي، إلى تقدم علمي، إلى بيئة نظيفة، إلى عالم يخلو من الأوبئة الفتاكة والمجاعات. إن النظرة المتفائلة تقول: إن مستقبلاً مشرقاً ينتظر سكان هذا الكوكب لو أجادوا فن التصحيح الذاتي والتوازن الذكي والتبادل المنفعي وتخلوا عن أسلحة المجابهة الفكرية، ولو تحقق ذلك سنهتف مع أحد مفكرينا: «يا لها من لحظة رائعة في التاريخ البشري».

الشهيد ابراهيم عبدالله السبيعي

الشهادة بالبدلة العسكرية أمنية تبلغ ذروتها

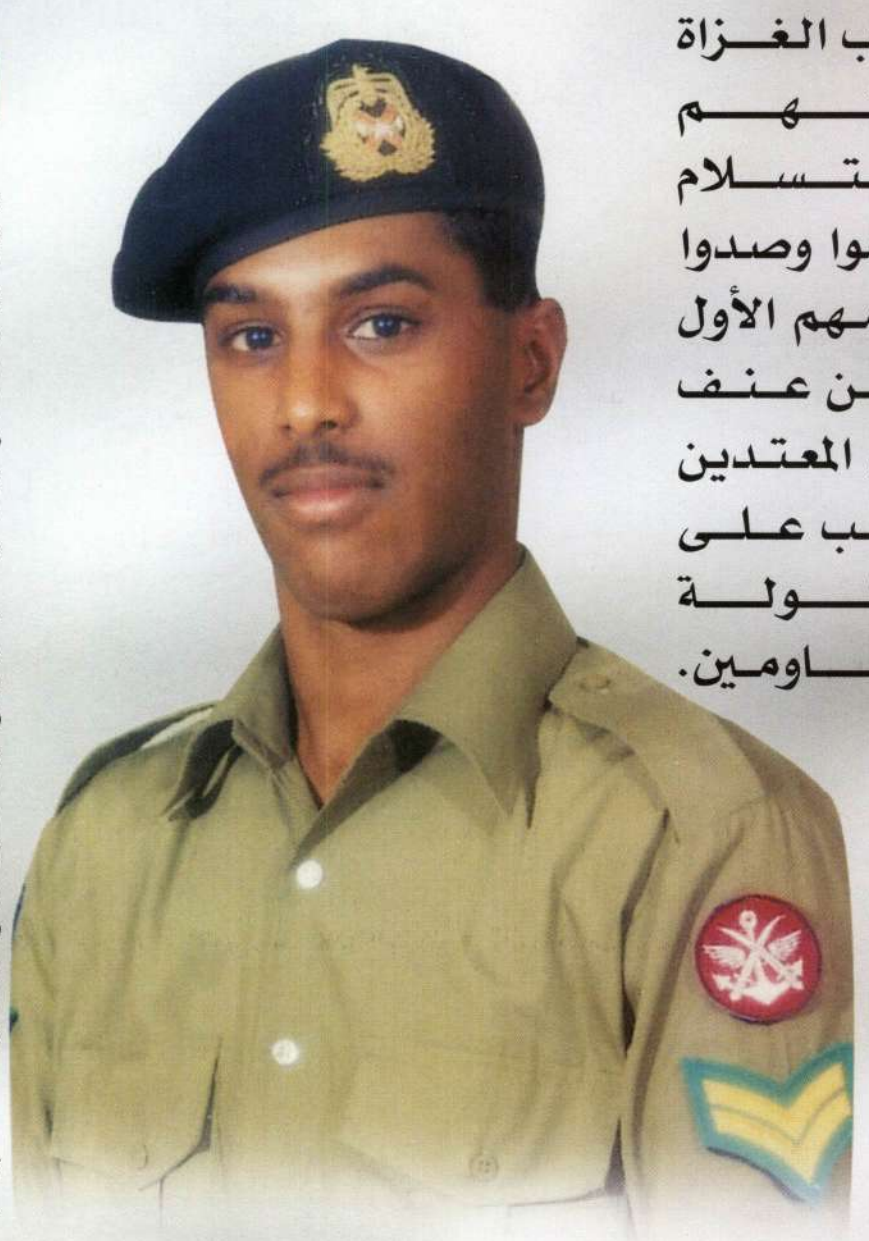

الهوية

عندما حدث الغزو العراقي الغاشم على دولة الكويت لم يكن العريف ابراهيم عبدالله نجم السبيعي قد أتم عامه الرابع والعشرين وكان يتدفق حيوية في حياته وإخلاصاً في عمله.

وفي الثاني من آب/ أغسطس ١٩٩٠ حصدت يد الغدر زهرة شبابه، فقضى شهيداً في سبيل وطنه، قضى وهو يذود عن بوابة هيئة العمليات مع عدد من زملائه الذين رفضوا الانصياع للغزاة، وقرروا القيام بواجبهم والدفاع عن وطنهم حتى قطرة الدم الأخيرة.

«الهوية» ترصد في هذه السطور الساعات الأخيرة من حياة الشهيد ابراهيم وبطولاته - مع زملائه - التي كتبت تاريخ هذه المرحلة من «حياة» الكويت والشعب الكويتي.

سيبقى الشهيد ابراهيم عبدالله نجم السبيعي وغيره من شهداء الكويت نموذجاً للبطولة والتضحية والفداء، فقد كان منضبطاً وملتزماً، ولقد عشق الشهيد ابراهيم العسكرية منذ طفولته، وكان يصر على ارتداء الملابس العسكرية في الأعياد، ويزهو بها بين أقرانه، ولذلك عندما أنهى المرحلة المتوسطة انخرط في السلك العسكري ليحقق حلمه الذي طالما راوده.

وقد تميز رحمه الله بالإخلاص والتفاني في العمل، والتعاون مع زملائه والهدوء والالتزام والمواظبة والاتزان والإخلاص في تنفيذ الأوامر وكان رحمه الله رجلا بمعنى الكلمة والدليل على ذلك بطولته واستشهاده يوم ٨/٢ .

مشروع إجازة

كان الشهيد قد قرر قضاء إجازة الخميس في جزيرة فيلكا، ولذلك فقد أوصل زوجته حيث أهلها

- بدل أن يلحق بأسرته في جزيرة فيلكا لقضاء الإجازة التحق بمقر عمله وقرر البقاء فيه والدفاع عنه حتى الاستشهاد.

- طلب الغزاة منهم الاستسلام فرفضوا وصدوا هجومهم الأول .. لكن عنف نيران المعتدين تغلب على بطولة المقاومين.

وأخته إلى الجزيرة يوم الأربعاء على أساس أنه سيلحق بهم ولكن يفعل الله ما يشاء فقد التحق رحمه الله بمقر عمله يوم الأربعاء وعند الساعة الثانية فجر الخميس، تلقى «النقيب خلايف» الأوامر من ضابط العمليات بوضع حراسات على البوابات وهيئة العمليات، وقام بذلك حيث أوكلت إلى الشهيد ابراهيم وأحد زملائه مهمة حراسة بوابة رئاسة الأركان ومعهما سلاح (الاستقلال).

واستمر القتال

وقف الشهيد رحمه الله عند البوابة وهو يمسك سلاحه بفخر واعتزاز وإصرار على التصدي للعدو وحوالي الساعة الخامسة صباح الخميس ٨/٢ صاح أحد ضباط العدو يطلب استسلام القوات الكويتية، لكن لم يجد الآذان الصاغية وأصروا على القتال، واشتد تبادل إطلاق النار بين الجانبين، واستمر القتال في ضراوته، وكان قد تم توزيع السلاح على العسكريين في المعسكر وتوزيعهم للدفاع عن أسوار المعسكرات والبوابات. وفي تلك الأثناء كان الشهيد إبراهيم السبيعي يقف عند البوابة ويقاتل برشاش استقلال من مكان محصن، ولكن أمره ضابط العمليات بأن يخرج بسلاحه ويتبعه ربما للتغطية عليه أو للتعامل مع العدو، وبالفعل انطلق الشهيد رحمه الله بجسارة وبطولة وحماس وبدأ يطلق النار على القوات العراقية التي كانت نيران أسلحتها موجهة وبكثافة باتجاه رئاسة الأركان. لكن هناك رأياً آخر يقول إنه بناء على أوامر من مقدم في هيئة العمليات انتقل الشهيد وزميله إلى الجزيرة المواجهة للبوابة للتعامل مع رتل عراقي قادم، وفي تلك اللحظات كانت القذائف العراقية تتساقط في كل الاتجاهات، والقوات الكويتية تعمل جاهدة على صد الهجوم، وتمكن الشباب بالفعل الحيلولة دون اقتحام القوات العراقية بوابات الرئاسة.

واستمر التحدي

أما الشهيد إبراهيم رحمه الله فقد كان يتبادل إطلاق النار مع العدو عند البوابة، ومع أن القصف كان شديداً إلا أنه اندفع بشجاعة إلى الشارع وتحدى نيران العدو دون أن يهتم بخطورة الموقف، مع عدم وجود ساتر يتحصن خلفه، حتى جاء وقت الشهادة حين انطلقت رصاصة من سلاح العدو باتجاه رأس الشهيد، وذلك بعد أن اضطرت الباصات العراقية إلى التوقف حيث نزل أحد القناصة وصوب نيران سلاحه إلى رأس الشهيد فأصابته بعد أن أبلى بلاء حسناً يشهد له به كل من كان معه بالمعسكر.

وسقط شهيداً

وبعد لحظات من إصابته صاح زميله «ابراهيم» طاح «سقط»، وبسرعة فائقة انطلق حمد الريش بسيارة طراز وانيت نحو مكان سقوط الشهيد وهو الرصيف الذي يتوسط الشارع المقابل للبوابة، فسحبه ثم رفعه إلى داخل السيارة، بينما كانت نيران أسلحة العدو توجه نحو حمد الريش، ولكنه رغم ذلك وبحفظ من الله استطاع نقل الشهيد إلى داخل المعسكر، وعندما تفحصه لاحظ أن الإصابة جاءت في رأسه، واستشهد. فوضع فوقه غترة أحد رفاقه، وكان أول شهيد في المعسكر، وقد استشهد حوالي الساعة ٥,٣٠ صباحاً، بعد أن ظل يهدد العدو المعتدي ويردد لقد قدمنا لكم العون في حربكم.

الدفن بالملابس العسكرية

وفي ذلك اليوم الحزين ٨/٢، علم والده بواسطة الهاتف أن ابنه قد استشهد فانطلق لاستلام الجثمان الطاهر من المستشفى العسكري، ولكن جنود البغي والعدوان رفضوا تسليمه الجثمان، وبعد مضي خمسة عشر يوماً على استشهاد ابنه أي يوم ٨/١٦ استلم جثمانه وتم دفنه في مقبرة الصليبيخات بملابسه العسكرية التي أحبها، ورغم هذا المصاب الأليم ولوعة الفراق فإن والده قال لسمو أمير البلاد حفظه الله الذي جاء إليه للتعزية: «عندي أربعة أبناء وأنا الخامس كلنا فداء للوطن».

أول شهداء المباركية

لقد كان حب الوطن والشجاعة سلاحه، فاستشهد بملابسه العسكرية التي كان مولعاً بها منذ طفولته، وقد ضرب المثل الأعلى للشهامة والبطولة والولاء للوطن، فواجه العدو وجهاً لوجه وهو يدافع عن كرامة الوطن، ويتحدث والد الشهيد السيد عبدالله نجم السبيعي بزهو عن شجاعة ابنه التي تحدث عنها كل من كان معه في ذلك اليوم وعن دوره المشرف والبطولي.

ويفخر والده أن ابنه أول شهداء معسكر المباركية، وكان يتحدث عنه وكأنه أمامه يزهو بملابسه العسكرية.

رحم الله الشهيد رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

من كتاب «حيثيات الاستشهاد» للدكتورة نجاة عبدالقادر الجاسم «بتصرف»

• تحصن برشاشه خلف أحد السواتر وقاتل قتال الأبطال لكن قناصاً عدواً نال منه برصاصة في رأسه.

• سلم المعتدون جثمانه بعد خمسة عشر يوماً من استشهاده .. ودفنه ذووه بملابسه العسكرية في مقبرة الصليبيخات.

• عندما عزى سمو الأمير والده باستشهاده كان رده: «عندي أربعة أبناء وأنا الخامس .. كلنا فداء للوطن».

بطل معركة بدر... ومن أوائل شهداء الإسلام...

عبيدة بن الحارث... مبارز الشرك وصاحب المسك

طارق البكري

• أسلم عبيدة رضي الله عنه في أيام الدعوة الأولى وكان عمره خمسين عاماً... وهاجر مع أخويه إلى المدينة.

• وثق به رسول الله ﷺ ومنحه شرف قيادة اللواء الثاني في الإسلام بعد حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه الذي قاد اللواء الأول.

• اختاره الله ليكون أول من يصاب في أول معركة يخوضها المسلمون بقيادة النبي ﷺ... ومن أوائل شهداء الدعوة.

رغم أن عمره كان يزيد عن الستين، فقد كان أول من ناداه رسول الله ﷺ ليكون أول مبارز في معركة بدر، وقد قدمه النبي ﷺ على حمزة بن عبدالمطلب وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما -، لما كان له في قلبه من حب، وفي شجاعته وقوته من ثقة، فلبى النداء وواجه عتبة بن ربيعة من المشركين... وكان أن لاقى وجه ربه بعد ساعات من نهاية المعركة.

أسلم عبيدة في وقت مبكر جداً من بداية الدعوة، بل وفي أيامها الأولى، يوم كان الإسلام هدفاً لكل كفار مكة، ولم يكن يجرؤ أحد على إعلان إسلامه.

أدرك عبيدة حقيقة الإسلام، آمن به عن اقتناع وتصميم، لم يرض لنفسه أن يكون عبداً لصنم لا نفع منه ولا ضر، ما هو إلا حجارة لا يرى ولا يسمع.

ما إن شهد حقيقة الإسلام حتى لبى النداء...

لم يتقاعس... لم يقل لأفر منه... لم يقل أريد أن أفكر... أنا أشك... أضاء الله صدره بنور الهداية فسار غير عابئ بكل ما يقوله أهل الشرك... عندما أسلم عبيدة كان عمره حوالي خمسين سنة، ومع ذلك لم يتردد، فهو كان يعلم حقيقة الأصنام، وكأنه كان يترقب ظهور الدين الحقيقي البعيد عن الأوهام والخرافات.

صحب عبيدة نبي الله محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام، ولم يكن يفارقه... يتعلم منه... يتفقه في الدين... يترصد ما يأتيه من الوحي... ظل عبيدة على هذه الحال إلى أن جاء الأمر بالهجرة إلى المدينة، حمل عبيدة متاعه ولبى نداء المدينة، وترك مكة برفقة أخويه الطفيل والحصين.

ما إن وصل عبيدة إلى المدينة حتى شغله حبه وشوقه إلى رسول الله ﷺ، فقد كان حب الصحابة رضي الله عنهم للنبي الكريم صادقاً... لا ريب فيه.

مكث عبيدة مع الصحابة ينتظر قدوم النبي ﷺ.

وكان قدوم النبي حدثاً عظيماً... انتظره المهاجرون والأنصار طويلاً، حتى بلغت فرحة المدينة مكانة عظيمة لم تشهد لها فرحة مماثلة... وضع عبيدة نفسه تحت تصرف رسول الله ﷺ.

لم يكن ليتأخر عن أمر من أوامره... ووثق به الرسول وأدرك حبه وإخلاصه وقدرته... فأوكل إليه قيادة سرية، وأعطاه اللواء... قيل إنه أول لواء... وقيل إنه الثاني بعد لواء حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه... والأصح أن النبي ﷺ أعطاه الراية بعد شهر تقريباً من تاريخ إعطاء الراية لحمزة رضي الله عنه.

بعثه الرسول ﷺ على رأس ستين رجلاً من المهاجرين إلى منطقة على طريق مكة... حيث التقت السرية مجموعة من الكفار على رأسهم سفيان بن حرب... جرت بين الفريقين مناوشة خفيفة وعاد الجميع دون اشتباك مباشر بالسيوف... وقيل إن أول سهم أطلق في الإسلام كان في هذه السرية... لم يجرؤ وقتها كفار مكة على مجابهة المسلمين رغم أن عددهم يصل إلى مئتين بينما المسلمون ستون فقط.

وظل عبيدة ينتقل من مكان إلى آخر، مستجيباً لأوامر النبي ﷺ، لا يخذله ولا يرد له طلباً... وكان يحرص على حضور مجالس الإيمان والإنصات لكل كلمة يقولها ﷺ. لكن... لم يعش هذا البطل حتى يرى بنفسه انتصارات المسلمين، ولم يهنأ برؤية مكة من جديد... لأن الله تعالى اختاره ليكون من شهداء الأمة الأولين... ويكون أول من يصاب في أول معركة كبرى يخوضها المسلمون بقيادة النبي ﷺ.

وينال عبيدة بذلك وسام الشهادة... وهو في الثالثة والستين من عمره تقريباً، حيث كان شيخاً كبيراً، لكنه أصر على أن يكون في صفوف الجيش، بل وفي المقدمة، بل وفي مقدمة المقدمة، وأول من يصاب.

بل وأعظم من ذلك، حيث يختاره الرسول ﷺ، لمجابهة قادة جيش الكفر، ويقول: «قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي».

فهل بعد ذلك من شرف؟! رسول الله ﷺ يقدمه على حمزة وعلي وينادي باسمه واسم أبيه، وذلك للمبارزة الأولى قبل بدء المعركة فيبارز عبيدة عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة وبارز علي الوليد بن

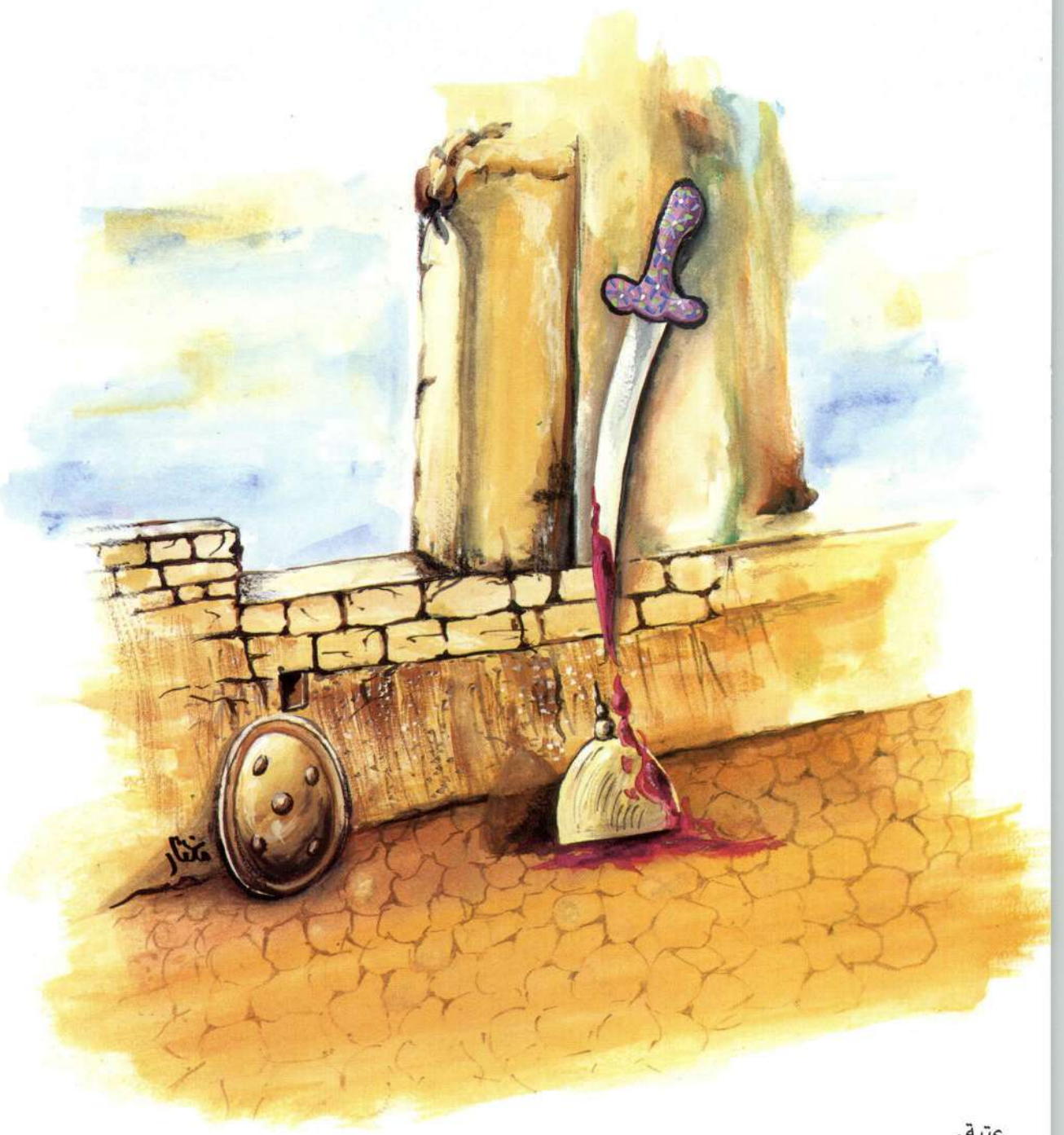

• قدمه الرسول ﷺ على حمزة وعلي - رضي الله عنهما - فناداه ليكون أول مبارز مسلم... وكان نصيبه عتبة بن ربيعة.

• عندما قال بعض الصحابة: «إنا نجد ريح المسك» رد النبي ﷺ عليهم قائلا: «وما يمنعكم... وههنا قبر أبي معاوية» يقصد عبيدة.

عتبة.

وقضى الله أن يصاب عبيدة في المبارزة، وقيل إن عتبة قطع رجل عبيدة قبل أن يجهز عليه حمزة وعلي.

وقعت المعركة العظيمة... وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً، حمل عبيدة ودمه ينزف على أرض بدر الطاهرة. حملوه إلى النبي ﷺ، فقربه الرسول إليه وأسند رأسه بركبته الشريفة، تخفيفاً له وتطييباً.

وبعد دفن شهداء المسلمين، حمل الجرحى ومنهم عبيدة للعودة إلى المدينة، وقبل وصولهم إليها... عادت روحه الطاهرة إلى خالقها، في منطقة تسمى «الصفراء»... كانت غنية بالنخيل، وعيون الماء.

ومضت الأيام وقضى الله تعالى أن يمر رسول الله ﷺ بالمكان نفسه مع مجموعة من أصحابه، فيقولون: «إنا نجد ريح المسك»... فقال رسول الله ﷺ: «وما يمنعكم... وههنا قبر أبي معاوية»... يقصد عبيدة رضي الله عنه.

ويسجل لعبيدة وسام الشهادة ووسام المسك، ويرتقي سلم البطولة، ويسقى بدمه الطاهر أرض البطولة، ويكون من أوائل الشهداء، كما كان من أوائل المسلمين وأوائل القادة.

ويزداد عبيدة تكريماً وتشريفاً بعد وفاته...

يكرمه الرسول ﷺ بأمر عظيم.... فقد كان من عادة المسلمين أن يتزوجوا أرامل الشهداء تكريماً لهم... وقام رسول الله ﷺ بالزواج من زينب بنت خزيمة بعد سنة واحدة تقريباً من استشهاد زوجها... لكنها لم تمكث طويلاً حيث توفيت بعد بضعة أشهر رضي الله عنها.

وتذكر المصادر أن عبيدة كان أكبر المجاهدين يوم «بدر»، فقد كان عمره ٦٣ سنة، وهو على كبره اختاره النبي ﷺ للمبارزة لمكانته وقوته... لكن الله تعالى أراد لهذا البطل أن يدخل الجنة شهيداً...

هذا هو عبيدة... القائد الشجاع - صاحب المسك الطيب حياً وميتاً... رضي الله عنه وعن سائر صحابة رسول الله ﷺ.

سيرة شخصية وسياسية لرائد التحديث والمأسسة الكويتيين...

الشيخ صباح السالم الصباح.. أمير الكويت (١٩٦٥ - ١٩٧٧)

رابعة بركات

● مركز الدراسات العربية بالتعاون مع المركز الدبلوماسي للدراسات يصدر النسخة العربية من كتاب جيرمان حول الشيخ صباح.

● خمسة فصول تغطي مختلف جوانب حياته ورؤاه وإنجازاته .. ووثائق عقدي الأربعينات والخمسينات نادرة!

● هو أول وزير للخارجية وأول نائب لرئيس مجلس الوزراء وأول ولي للعهد.

الكويتية

كثيرون هم الذين صنعوا تاريخ الأوطان وبنوا الأمم والحضارات، لكن قلة من هؤلاء استطاعت قيادة هذه الكثرة، وتوجيهها، وإرشادها، والسير بها عبر شتى المسالك والعقبات، وترشيد خطواتها وأفكارها ومنطلقاتها.

ومن هؤلاء القلة الذين يزخر بهم تاريخ دولة الكويت الشيخ صباح السالم الصباح أمير الكويت الثاني عشر (١٩٦٥ - ١٩٧٧) الذي حكم البلاد في فترات عصيبة، واستطاع قيادتها بحكمة واقتدار في ظل أوضاع محلية وإقليمية وعالمية صعبة جداً.

ويستنكر الجيل القديم من الكويتيين بإعزاز عميق تلك السنوات الاثنتي عشرة التي قاد فيها ربان الكويت دفة الحكم في البلاد، واستطاع جمع الكويتيين على قلب واحد وراية واحدة، وظفر بمحبة الجميع وودهم.

وتخليداً لمسيرة الراحل الكبير وإحياء لذكراه بين الأجيال القادمة، ولتسليط الضوء على عدد من المواقف الحكيمة والفذة التي وقفها الشيخ صباح فقد أصدر (المركز الدبلوماسي للدراسات الاستراتيجية) حديثاً النسخة العربية لسيرة المرحوم الشيخ صباح السالم الصباح.

وسبق أن أصدر المركز الكتاب باللغة الانجليزية منذ عامين حيث كتبه الكاتب البريطاني المتخصص في شؤون الخليج روبرت جيرمان بإشراف مجموعة متخصصة في البحث والتوثيق، وصدر الكتاب في لندن عن (مركز الدراسات العربية) بالتعاون مع المركز الدبلوماسي للدراسات في دولة الكويت.

وأشرف على الترجمة العربية للكتاب السفير والدبلوماسي الكويتي عبدالله بشارة الذي قدم للكتاب بتمهيد مهم عرف فيه بالشيخ صباح، وبمسيرته معه خلال عمله سفيراً للكويت في عدد من دول العالم، إضافة إلى قصة الكتاب ومساهمات أبناء الأمير الراحل في إصداره.

حماس .. وتحديث

وينقسم الكتاب إلى خمسة أجزاء يتناول أولها نشأة الشيخ صباح السالم والظروف التي شهدتها فترة مولده والعناية التي تلقاها من والدته التي أشرفت على تربيته.

ويلاحظ القارئ ندرة الوثائق التي تتحدث عن مسيرة تلك الفترة وغياب التسجيل التاريخي عن تلك الحقبة التي عاشها الشيخ صباح، ولم تجد الهيئة المشرفة على الكتاب في الأرشيف البريطاني أو الأميركي ما يشير إلى حياة الشيخ صباح آنذاك.

والجزء الثاني يتحدث عن مسيرة الشيخ صباح بدءا من عام ١٩٣٩ عندما تولى مسؤولية الشرطة داخل المدينة في أعقاب الأحداث السياسية التي شهدتها الكويت في النصف الثاني من عام ١٩٣٨ . ويقول مؤلف الكتاب إن ما جاء من تسجيل عن تلك الفترة يظل قليلاً ومتباعداً وإنه لم يسعفه البحث في الأرشيف البريطاني حيث لم تتوافر مادة تلقي الضوء بشكل مريح على حياة الشيخ صباح في تلك الفترة.

ويبدأ الفصل الثالث مع تخلي الشيخ صباح عن إدارة الشرطة في عام ١٩٥٩ وتوليه إدارة الصحة بعد أن اتسعت المسؤوليات وتبنت الكويت نظام الإدارة التي شكلت الحقبة المؤدية إلى قيام الوزارات. وفي ذلك الفصل تتوافر معلومات كثيرة عن انسجام الشيخ صباح مع مسؤولياته في وزارة الصحة، وتركيزه على تحديث النظام الطبي واستحضار المهارة الطبية من الخارج.

ويتناول الفصل أيضاً تزايد نفوذ الشيخ صباح السالم داخل العائلة لاسيما بعد وفاة الشيخ فهد السالم عام ١٩٥٧، واتساع دور الكويت في المحيطين العربي والإسلامي والمحيط الدولي. ومن الوثائق التي توافرت

للمؤلف يتضح حماس الشيخ صباح السالم مع مسؤولياته في إدارة الصحة.
ويبدأ الفصل الرابع مع استقلال الكويت عام ١٩٦١ وتعيينه أول وزير للخارجية في دولة الكويت وذلك في السابع عشر من يناير ١٩٦٢، عندما تم تشكيل أول مجلس للوزراء حيث تفرغ الشيخ صباح للعمل الدبلوماسي وتولى شؤون الصحة بعده السيد عبدالعزيز الصقر. كما صدر مرسوم بتعيين الشيخ صباح نائباً لرئيس مجلس الوزراء، وبذلك أصبح الشيخ صباح أول وزير خارجية وأول نائب لرئيس مجلس الوزراء.
ويقول المؤلف إنه في الثلاثين من أكتوبر ١٩٦٢ صدر المرسوم الأميري بتعيين الشيخ صباح ولياً للعهد لأول مرة في تاريخ الكويت، كما تم فصل رئاسة مجلس الوزراء عن رئاسة الدولة وفق بنود الدستور، وبذلك أصبح الشيخ صباح رئيساً للوزراء وولياً للعهد من أكتوبر حتى نوفمبر ١٩٦٥ .
وحسب الكتاب فإن الكويت شهدت خلال تلك الفترة القصيرة أحداثاً غير متوقعة .. ففي الشؤون الداخلية تبنى الشيخ صباح الدستور بنوداً وروحاً وفلسفة، إذ التزم بقيود الدستور وبحث عن أفضل الكفاءات لمساعدته على العمل، واستعان بمن كان يعرفهم أيام عمله في الشرطة مثل الأستاذ جاسم القطامي أول وكيل لوزارة الخارجية.

الهم الكبير

لكن الاهتمام الاكبر لجهود الشيخ صباح كان للشأن العراقي والحرص على الخروج من الأزمة التي افتعلها رئيس وزراء العراق عبدالكريم قاسم .. ويوضح الكتاب (وفق الوثائق البريطانية وتقارير السفراء الأجانب) الآليات التي اتبعها الشيخ صباح أثناء تلك الأزمة، فقد كان مرناً في الأسلوب ملتزماً في الهدف لم يمانع الدخول في مفاوضات سرية مع نظام عبدالكريم قاسم عبر وسطاء كما يوضح الكتاب استناداً إلى مصادر عدة منهم السيد جاسم القطامي من الجانب الكويتي.
ويقول المؤلف إنه عندما سقط نظام قاسم في فبراير ١٩٦٣ اتخذت الكويت خطوات سريعة للاتصال بالنظام العراقي الجديد الذي دخل في مفاوضات واتصالات من ضمنها القنوات السرية التي تمت في صيف عام ١٩٦٣ في لبنان بين الشيخ صباح وبين وزير خارجية العراق آنذاك طالب شبيب.
ويضيف إنه في أكتوبر ١٩٦٣ وقع الشيخ والرئيس العراقي أحمد حسن البكر اتفاقية الاعتراف وترسيم الحدود وفق الرسائل المتبادلة بين حاكم الكويت ورئيس وزراء العراق عام ١٩٣٢ .
وإذا كان النجاح حليف الشيخ صباح في الشأن الخارجي فإن المشكلات الداخلية غير المتوقعة أزعجته كثيراً خاصة الأزمة الدستورية في ديسمبر ١٩٦٤ وهي الأزمة التي حول فيها الشيخ صباح قناعته بعدم الجمع بين ولاية العهد ورئاسة مجلس الوزراء.

الأمير والإمارة

وخصص المؤلف الفصل الخامس والأخير عن حياة الشيخ صباح بوصفه أميراً للكويت. ويقول إن فلسفته كانت عدم التدخل في الشؤون اليومية للحكم باعتبارها مسؤوليات سمو ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء الشيخ جابر الأحمد، مع تركيزه على الشأن الدبلوماسي الخارجي، لذلك استهل حكمه بزيارة إلى المملكة العربية السعودية تأكيداً للشراكه الاستراتيجية معها.
ويذكر الكتاب أن الشيخ صباح قام بزيارة طويلة إلى الخليج حيث زار جميع الإمارات في مايو ١٩٦٦ من أجل رسم تفاهم كويتي سعودي خليجي، وقام بزيارة لجميع الدول العربية إيماناً بأن سلامة الكويت وأمنها يستقران مع تسيد الهدوء والاستقرار في العالم العربي. ويقول المؤلف إن الشيخ صباح ذهب إلى الولايات المتحدة في ديسمبر ١٩٦٨ ليضع رسالة مهمة أمام الرئيس الأميركي جوهرها ارتباط حل القضية الفلسطينية بالأمن في المنطقة وضرورة اهتمام الولايات المتحدة بأمن الخليج.
والكتاب مملوء بالتقارير عن تلك الزيارة التي أوصل فيها الشيخ صباح همومه الأمنية إلى البيت الأبيض.
وتقول هيئة تحرير الكتاب إن غياب الأرشيف الكويتي حرم الكتاب من معلومات مهمة يحتاج إليها لكي تكتمل المصادر التي اعتمدتها، ولم تتوافر في الكويت الوثائق لأن الغزو العراقي صادرها كما إن الأشخاص الذي التقت بهم الهيئة في الكويت اعتمدوا على الذاكرة وليس على التوثيق وعددهم تقلص مع الزمن.
ويشرح الكتاب فلسفة الشيخ صباح في تواصله مع أبناء الكويت ومحاورتهم خاصة في المآدب التي يقيمها في رمضان وفي نهجه (الباب المفتوح) وإيمانه بالتعددية وضرورة الاستماع إلى مختلف وجهات النظر.
وضم الكتاب ملحقاً عن شجرة آل الصباح، كما تضمن عدداً من الصور النادرة والوثائق التي كتبها الأمير الراحل بخط يده.
ولا ريب في أن هذه السيرة الذاتية ستشكل المرجع الأكثر شمولية عن حياة الشيخ صباح وفترة حكمه.

إضاءة

ولد الشيخ صباح - على أرجح الأقوال - عام ١٩١٥، وتعلم وفقاً للمناهج المعهودة في الكويت فأتقن القرآن واللغة العربية وتولى مسؤولية الشرطة ما بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٥٩، ثم مسؤولية إدارة الصحة. وفي عام ١٩٦١ تولى منصب وزير الخارجية.
وفي الثلاثين من أكتوبر ١٩٦٢ صدر مرسوم أميري بتعيين الشيخ صباح ولياً للعهد لأول مرة في تاريخ الكويت، وبذلك أصبح الشيخ صباح رئيساً للوزراء وولياً للعهد من أكتوبر حتى نوفمبر ١٩٦٥ .
نودي بالشيخ صباح أميراً للبلاد في نوفمبر عام ١٩٦٥ خلفاً للشيخ عبدالله السالم الصباح الحاكم الحادي عشر للكويت الذي امتدت فترة حكمه من عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٦٥ .

وفي فجر السبت ٣١ ديسمبر عام ١٩٧٧ توفي الشيخ صباح السالم الصباح عن عمر يناهز الـ ٦٣ عاماً وبعد حكم دام ١٢ عاماً وعم الحزن أرجاء الكويت والعالم العربي والإسلامي، وشيعت جنازته في موكب شعبي ورسمي مهيب شارك فيه جميع أبناء الكويت وعلى رأسهم سمو أمير البلاد الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح.
وتخليداً لذكراه أطلق اسمه على أول مدرسة ثانوية للمقررات في الكويت، كما خصصت إحدى مناطق الكويت باسمه حيث أنشئت عليها ضاحية صباح السالم.

● الدبلوماسية الهادئة التي اتبعها مع «قاسم» لحل النزاع الكويتي العراقي أثمرت اتفاقاً لترسيم الحدود مع «البكر».

● آمن دوماً أن سلامة الكويت وأمنها يتحققان بتحقيق السلام والأمن في الوطن العربي.

● عقله المؤسسي ورؤاه الديمقراطية وحبه لشعبه ووطنه أنجب أول نظام دستوري برلماني في المنطقة.

بين التفكك الأسري وقصور المعالجة المؤسسية .. وغياب القانون

العنف المدرسي في الكويت ظاهرة خطرة.. جذورها في المجتمع وفروعها في ظلام مجهول

أعد الندوة وأدارها :
صالح يوسف العاقل

الهوية

أصبح العنف في كثير من مدارس الكويت ظاهرة خطرة، تستحق ليس الدراسة وتمحيص الأسباب حَسْبُ، بل تدخلاً علاجياً حاسماً، محوره التنفيذ الفوري لتوصيات الكثرة الكاثرة من الدراسات القائمة على الاستبيانات الواقعية والتنظيرات الأكاديمية، والتي كانت تعدّ وتوضع على الأرفف، لأن أحداً لم يرغب باتخاذ ما يمكن تسميته »قرارات مؤلمة»، ذات صلة بالكشف عن جذور هذه الظاهرة في المجتمع، وتجفيف منابعها الأصلية الكامنة في بنياته المكونة، وفي العملية التعليمية أيضاً.

«الهوية» تحاول في هذه الندوة تسليط الضوء على هذه الظاهرة من خلال عدد من المختصين الأكاديميين والتربويين والمسؤولين القائمين على مؤسسات ذات صلة بالعملية التعليمية وظاهرة العنف تحديداً وهم: أ. د. عويد المشعان/ أستاذ علم النفس في جامة الكويت والأمين العام للجنة الوطنية لمكافحة المخدرات، والأستاذة بدرية الخالدي/ مدير إدارة الخدمة النفسية والاجتماعية في وزارة التربية، والأستاذ مسلم السبيعي مساعد مدير مراكز تنمية المجتمع، والأستاذ عبدالله العازمي مدير إدارة رعاية الأحداث، والأستاذ صباح عبداللطيف المالك، كما حضر الندوة الإعلامي داهم القحطاني الصحافي في «الرأي العام».

تؤكد الدراسات والاستبيانات، وبعض الكتب المتزنة التي تعالج تطور المجتمع الكويتي وأوضاعه أن ظاهرة العنف في المدارس ليست جديدة، ولا يحتاج المرء إلا لقليل من التمحيص والمقارنة ليكتشف أن جذور هذه الظاهرة تتجلى في ممارسات راسخة ارتبطت ببنيات المجتمع المؤسسة، والمفارقات الناتجة عن انتقالاته الاجتماعية والاقتصادية القسرية، وتحولاته القيمية الطارئة، وأن علاجها ينبغي أن يشمل مستويات مختلفة من العلاقات الاجتماعية والمؤسسية بدءاً من الأسرة وانتهاء بالمدرسة مروراً بالجهات المكلفة تنفيد القانون وإعادة الاعتبار التربوي للمؤسسة التعليمية.

ليس من التنظير في شيء القول: إن مستقبل المجتمع والدولة رهن بسوية الأجيال القادمة من الأطفال والناشئة، ومما يزيد هذا القول، الذي يتواضع عليه علماء الاجتماع وواضعو خطط التنمية، أن مجتمع الكويت هو مجتمع فتي جداً، وهذا يحتم علينا جميعاً قراءة نقدية موضوعية لمختلف مشكلات الجيل الجديد، والظواهر السلبية التي تعيق حضوره الفاعل مستقبلاً في حياة وطنه. من هذا المنطلق كانت ندوتنا هذه.

●● صالح العاقل: بداية أشكر لكم تفضلكم بالحضور،

واهتمامكم بنقاش ظاهرة العنف في المدارس، وهي الظاهرة التي تشغل - ولا شك - حيزاً واسعاً من طيف عملكم، في محاولة لتلمس أسبابها وجذورها في المجتمع والعملية التعليمية والتراخي في تطبيق القوانين ذات الصلة.

اسمحوا لي قبل البدء بسماع آرائكم أن أشكر الأخ مسلم السبيعي الذي زودني بكثير من المصادر التي مكنتني من الوقوف على جانب كبير من تاريخ الظاهرة في مدارس الكويت، والتي بينت أنها - فعلاً - ليست جديدة، وأن طريقة التعاطي معها لم يتجاوز الإطار النظري.

وعبر أكثر من عقدين درجت إدارة الخدمات الاجتماعية والنفسية في وزارة التربية على إعداد وطباعة دراسات قيّمة وحلقات نقاشية، تعتمد على استبيانات واقعية حول العنف في المدارس، وقبل ذلك المشكلات الأسرية للطلاب المخالفين للنظام المدرسي .. لكن الظاهرة كانت تتنامى .. وتتضخم!

ولعل نسَبَ الحلقة النقاشية حول مظاهر العنف وأسبابه بين طلَبة وطالبات الثانوي التي انعقدت يومي ٢١ - ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٠ تقدم أبلغ دليل على خطورة الظاهرة واتساع طيف أسبابها وآثارها من جهة والتعاطي الرخو معها من جهة أخرى، بالقياس إلى نسب الدراسات السابقة.

سنتوجه ببعض نسب هذه الدراسة إلى الأستاذة بدرية، لكن قبل ذلك سنبدأ مع د. عويد المشعان أملاً في إيضاح الجذور/ العوامل الاجتماعية لهذه الظاهرة.

● د. عويد المشعان: بداية أشكركم على طرح هذا الموضوع، لأنه من الموضوعات المهمة والحيوية في المجتمع الكويتي، فالعنف ظاهرة خطيرة في المجتمع، وخاصة إن لم تجد الطريقة الناجعة لمعالجتها بشكل مبكر.

لقد أثبت علم النفس أن لا سلوك دون دوافع، والعنف ناتج عن إحباطات، قد يكون مصدرها الأسرة أو المدرسة أو المجتمع.

ثم إن العنف يولد العنف، لذلك - وعلى سبيل المثال - إذا كان لدينا طفل عنيف لا يجوز أن نعالجه بالعنف .. إذ يجب أن نستخدم السلوك المعاكس من أجل العمل على تخفيف هذا العنف .. ولكن للأسف في مجتمعنا تعالج هذه المشكلة بعنف مقابل، وفي هذه الحالة يزيد سلوك العنف لدى الطفل. والأمر لا يختلف في المدرسة عما هو في وزارة الداخلية، التي تستخدم نفس الأسلوب.

إن أسباب العنف هو الإحباط ومن أسبابه الجوهرية طبيعة عملية التنشئة الاجتماعية الخاطئة فبعض الأسر تستخدم أساليب النبذ والحرمان والقسوة والتجاهل .. وهذه كلها أساليب غير علمية وغير واقعية وهي التي تجعل هذا الشاب أو هذا الطفل يسلك سلوك العنف. كما إن عدم إشباع حاجات الشاب أو الطفل الأساسية وعدم احترام تطلعات وآمال هذا الشاب وعدم منحه الحرية حتى يستطيع التعبير عن ذاته وعن نفسه يعتبر من أسباب العنف.

إن الإحباط والكبت الناتجين عن الأساليب القمعية لا يزولان، بل يتمظهران عنفاً عندما تسنح الفرصة.

لقد أصبح سلوك العنف ظاهراً لدينا بعد العدوان العراقي، وتجلى في تصرفات بعض شبابنا ضد ممتلكات الدولة أو ممتلكات الأسر أو حتى ممتلكاتهم الشخصية كنوع من «الإسقاط».

د. عويد المشعان

●● صالح العاقل: لنهبطٍ من علياء النظري إلى الواقع قليلاً. من واقع خبرتك الأكاديمية وتطبيقاتها في عملك المؤسسي كأمين عام للجنة الوطنية لمكافحة المخدرات وغيرها كيف ترى الأسرة الكويتية؟ هل هي متماسكة وتحقق الشروط التربوية السوية للتنشئة بشكل عام، بما يعفيها من مسؤولية ظاهرة العنف في المدارس؟

● د. عويد المشعان: الأسرة الكويتية ليست واحدة، فهناك منها ما يستخدم أساليب صحيحة في التنشئة، ومنها ماهو بعيد كل البعد عن هذه الأساليب. وأكثر العنف منشؤه الأسر المفككة، حيث تترعرع الانحرافات في سلوك الأبناء، بسبب المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية.

مشكلة العنف - أستاذ صالح - مشكلة يتداخل فيها النفسي والاجتماعي والعقدي، وهي تنتقل من الآباء إلى الأبناء، فإذا كان الأب عنيفاً، فإن الابن يمكن أن يتقمص شخصية أبيه، ويصبح عنيفاً، وهو في قرارة نفسه يعتقد أن هذا السلوك صحيح، باعتبار الأب - نفسياً - القدوة والنموذج الصائب. ثم علينا ألا نغفل دور وسائل الإعلام في هذه الظاهرة، سلباً وإيجاباً، وهو أمر لابد أن يسلط الضوء عليه بالتفصيل، كون الإعلام من العناصر المؤثرة في شخصية الناشئة في عصرنا هذا.

إلا أن الدور المركزي لابد أن تلعبه الأسرة. وفي دراسة مبسطة عن الأسرة الكويتية وجدنا أن الأب غائب عنها، وغيابه يترك في المنزل - وفي نفوس أبنائه وبناته - فراغاً كبيراً، وسواء كان هذا الغياب في العمل أو الديوانيات .. فإنه يظل غياباً .. مؤثراً. لذلك عندما قمنا في اللجنة الوطنية لمكافحة المخدرات بحملة «يبا .. أمانة خلك ويانا» أثارت صدى كبيراً في المجتمع بين الآباء والأبناء. إن نتيجة الإحصائيات الخاصة بزيارة الآباء لمدارس أبنائهم هي نتيجة مخيفة، فالآباء الذين يذهبون للاطمئنان على أولادهم في مدارسهم هم قلة، وأبناؤهم متفوقون أصلاً، لكونهم ينالون قسطاً من الاهتمام.

●● صالح العاقل: أستاذ مسلّم، عرض د. عويد إلى جانب من جذر المشكلة في المجتمع، وهي غياب الأب، وتفكك بعض الأسر .. واسمح لي أن أتلو بعض النسب من الحلقة النقاشية التي أشرت إليها في المقدمة والمتعلقة بالأسرة: ٥٧٪ من طلاب العينة المستهدفة لا يشعرون بحب أسرهم لهم، ٩٠٪ لا يشعرون باحترام أسرهم لهم (وبالتأكيد فإن الشعور متبادل)، ٢٥٪ يشعرون بكراهية أفراد أسرهم لهم، ٣٧٪ يشعرون بلا مبالاة وإهمال أسرهم لهم، ٣١٪ من الآباء يشجعون أبناءهم على ضرب من يحاول ضربهم، ٢٧٪ من الأسر يستخدم أفرادها السب والشتم فيما بينهم، ٦٪ من أبناء الأسرة الواحدة معتادون على المشاجرة فيما بينهم (مما يشيع الجو العدواني والعنف)، ٥١٪ من الأسر تقابل

● د. عويد المشعان:

- لاسلوك دون دوافع والعنف ينتج عن إحباطات قد تكون الأسرة مصدرها أو المدرسة أو المجتمع

- عملية التنشئة الاجتماعية الخاطئة وغياب الأب عن الأسرة وضعف دور الاختصاصي الاجتماعي مكامن للعنف في مدارسنا.

- في مجتمعنا يعالج العنف بعنف مقابل، وهذا ما يجذر الظاهرة ويكرسها .. والأمر لا يختلف في المدرسة عما هو في وزارة الداخلية التي تستخدم نفس الأسلوب.

- للعدوان العراقي على الكويت دور في تنامي ظاهرة العنف .. ولكن عدم إشباع حاجات الطفل أو الشاب الأساسية وعدم منحه الحرية للتعبير عن ذاته هو الأخطر.

- نقل الطالب من مدرسته عقاباً له ليس حلاً للمشكلة بل توسيعاً لنطاقها .. ومن الضروري تخريج مدرسين مربين مؤهلين في الجامعة.

● مسلم السبيعي:

- العنف رد فعل سلبي على فعل آخر يتجلى لفظياً أو بدنياً أو نفسياً .. ومنذ ١٩٩٤ وظاهرة العنف آخذة بالتفاقم.

- نحن في إدارة تنمية المجتمع لا ندفن رؤوسنا في الرمل بل نحاول علاج العنف بنشر الوعي بأخطاره وإيضاح جذوره .. لكن الاستجابة لدعواتنا متواضعة جداً.

- تأصيل العنف بحض الأبناء على أخذ حقهم بأيديهم ممارسة اجتماعية شائعة .. وللتفكك الأسري حصة الأسد من أسباب الظاهرة.

- مهنة الاختصاصي الاجتماعي في مدارسنا بأيدٍ غير كويتية مما يعقد «علاج» الظاهرة .. والإدارات تكلف الاختصاصي الاجتماعي بمهام إدارية و«عقابية» ضد الطلبة فتنسف دوره.

- تقصير إدارة الخدمات الاجتماعية والنفسية في وزارة التربية في دعم الاختصاصيين يجعل الكويتيين منهم يتسربون

أبناءها باللامبالاة ولا تشجعهم على القيام بعمل حسن.

وهذا يقود موضوعياً إلى النتائج التالية:

٣٧٪ من طلاب العينة التجريبية يضطرمون بالغضب في مواقف تحتاج ضبط النفس.

٤٤٪ لا يتمتعون بالقدرة على التمييز بين الخطأ والصواب عند الغضب.

٥١٪ يقومون بالبدء بالتشاجر والضرب (بصورة دائمة أو في بعض الأحيان).

٤٣٪ يستخدمون الضرب، ٣٠٪ يستخدمون السب.

١٩٪ يلجؤون لفرض الشخصية بواسطة التهديد بالضرب.

٦٥٪ ينتابهم شعور بالغضب تجاه أوامر الأسرة، ٧٤٪ يشعرون بالغضب لأنهم أدنى من زملائهم دراسياً، ٢١٪ يستخدمون التهديد بالضرب كأسلوب أمثل لكسب احترام الآخرين.

ما الذي تفعله مراكز التنمية الاجتماعية حيال هذه النسب المخيفة، والتي اعتقد أنها أصبحت أكثر إخافة عام ٢٠٠٤؟ هل تنسجون علاقات مؤسسية بين مراكزكم والأسر الكويتية في كل منطقة؟

● مسلم السبيعي: أشكرك وأشكر مجلة الهوية على إثارتها لهذا الموضوع، وأبدأ أولاً بتعريف العنف: إنه رد فعل سلبي لفعل آخر، فسّر على أنه امتهان أو سخرية، وقد يتجلى في أشكال مختلفة، منها لفظي، أو بدني، أو نفسي.

بالنسبة لنا كمراكز تنمية اجتماعية لا نعفي أنفسنا من المسؤولية، فنحن لا نزعم أننا فعلنا كل شيء، لكننا نحاول - قدر ما نستطيع - القيام بالتوجيه وتسليط الضوء على هذه الظاهرة المخيفة، التي تدل الإحصاءات التربوية أنها أخذت بالتفاقم منذ عام ١٩٩٤ حتى الآن.

نحن لاندفن رؤوسنا في الرمل، بل نقر بوجود مشكلة، وأي إنجاز في تجاوزها مهما صغر يعتبر مكسباً لنا، وفي هذا السبيل نستضيف بين فترة وأخرى طلبة ومختصين ونطلق نقاشاً بهدف إيجاد الحلول. كما قمنا مراراً بدعوة عدد من أولياء الأمور للحوار معهم حول مشكلات الأبناء وغيرها، لكن مما يؤسف له أن تلك الدعوات لم تجد الاستجابة المطلوبة، وكان عدد الحضور متواضعاً جداً، فمنهم لا يحضرون إلا إذا كانوا ملزمين، أما أن يلبوا دعوة كهذه متطوعين، فهو صعب جداً.

أما فيما يتعلق بإقامة روابط مع الأسر الكويتية، فإن هناك إدارة خاصة لهذا الأمر وهي «إدارة الرعاية الأسرية»،وتختص ببحث الحالات وتوفير مردود مالي لأسر معينة.

أود أن أشير إلى ممارسة اجتماعية شائعة تؤصل ظاهرة العنف عامة، والعنف في المدارس خاصة، وهي طلب الأسر من أي ابن لها بالرد على العنف بمثله، دون اللجوء إلى بدائل أخرى كالاختصاصي الاجتماعي أو الناظر، أو حتى المدرس نفسه. ثمة تحريض عريض من الأخ وابن العم والصديق، وحتى عندما يتدخل الأب فإنه غالباً ما يكون جزءاً من المشكلة.

وأنا اعتبر أن للغزو أثراً على شيوع العنف في مجتمعنا، فقبله كان السلاح نادراً، وهو الآن متوفر بكثرة، لكن لا ينبغي استخدامه شماعة نعلق عليها أسباب مشكلاتنا. الأمر الجوهري أن الآباء غائبون، وتحاول الأمهات القيام بأدوارهم، لكن دون جدوى.

مسلم السبيعي

لقد أخبرتني إحدى ناظرات المدارس أنها اضطرت لأخذ طفلة من المدرسة إلى بيتها لأن أحداً لم يأت لاصطحابها إلى بيت أسرتها، لتكتشف في اليوم التالي أن الأم (على سفر) والأب غير موجود .. والخادمة المكلفة العناية بها كانت مشغولة بأمر أو موضوع آخر!

أو نسأل بعد ذلك عن منابع العنف والانحرافات؟

●● صالح العاقل: أستاذة بدرية، لقد أشرت في بداية هذه الندوة إلى عدد من الدراسات والاستبيانات التي أصدرتها إدارتكم، واسمحي لي أن أتلو بعض النسب من آخر دراسة حصلت عليها، خاصة بالمؤسسة التعليمية:

٦٠٪ من طلاب العينة يرون أن المدرسة تستخدم الرقابة الصارمة على سلوك الطلاب كسلوك عام.

٨٦٪ منهم أكدوا أن المدرسين يعاقبون الطلاب بالشتم، فيما يرى ٣١٪ (مقابل ٨٪) أن الجو العام في المدرسة غير مريح، و٥٧٪ لايرون أن المدرسة يمكن أن تكون بمثابة ولي أمر للطالب، و٧٨٪ يشعرون بالاضطهاد من جانب المدرسين.

٥١٪ من الطلاب تعرضوا للعنف من قبل طلاب آخرين (٤٥٪ من الحالات في الجهراء والأحمدي فقط)، ومما يدل على أن العنف المدرسي ليس وقفاً على الذكور فإن الدراسة بينت أن ١٣٪ من البنات تعرضن للعنف بصورة دائمة، و٢١٪ منهن تعرضن له في بعض الأحيان.

ونسب التعرض للعنف هذه لاتختلف كثيراً باختلاف النظام التعليمي إذ إن ٣٥،٨٪ منه في الثانوي العام و ٣٨،٨٪ في الثانوي - مقررات.

ولكن كيف يرد الطلاب - حسب العينة - العنف أو يحالون تجنبه؟:

٦٦,٧ يغادرون المدرسة مع الزملاء، فيما يلجأ ٥٨,٩٪ إلى الاختصاصي الاجتماعي، و٤٣,١٪ يلجؤون إلى إدارة المدرسة أو أحد المدرسين، و٢٧,٤٪ يحملون سكيناً أو الة حادة أخرى للدفاع عن النفس.

وتؤثر هذه الظاهرة على جوانب السلوك الاجتماعي لدى الطلبة، فمثلاً:

٢١,٦٪ من الطلبة يتجنبون المشاركة في المناسبات والمهرجانات والرحلات المدرسية.

٩٨,٨٪ يبقون في المدرسة حتى يغادرها طلاب معينون.

٧,٨٪ يبقون في المنزل ولا يذهبون إلى المدرسة (عند التهديد).

وفي معرض الأسباب ترى الدراسة أن:

٧٨٪ من طلاب العينة لا يمارسون أنشطة ثقافية واجتماعية داخل المدرسة إلا بين الحين والآخر، فيما ٥٣٪ لايفعلون ذلك إطلاقاً.

٦٨٪ منهم يشاهدون أفلام عنف ورياضات عنيفة بصورة دائمة، و٥٣٪ يفعلون ذلك في بعض الأحيان .. وهناك نسب مخيفة أخرى عن كيفية قضاء وقت الفراغ في الشارع والسيارة وعلى السيكلات وعن نفور الأبناء من الخروج مع أسرهم للنزهة أو زيارة أقاربهم، وهو ما يشيع غياب الرقابة الأسرية.

ما الذي تفعله إدارتكم والمؤسسة التعليمية عامة إذن؟ ثم إن الأرقام الدالة على ارتفاع نسبة العنف في المدارس في تصاعد مستمر بين عام وآخر، ألا يشير ذلك بفشل المؤسسة التعليمية؟ أم إن هناك أطرافاً أخرى لابد من

تفعيلها لوقف هذه الظاهرة؟

● بدرية الخالدي: المجتمع المدرسي هو جزء من المجتمع عامة، والطالب هو نسخة من بيئته الاجتماعية وخلفياتها، وعندما يكون العنف موجوداً في المجتمع فسيوجد - دون شك - في المدرسة.

ثم إن العنف يتصاعد في جميع أنحاء العالم، ويعكسه الإعلام ساعة بساعة، وسنكون غير صادقين إذا قلنا إننا نبعد أبناءنا عن هذه الظاهرة. حتى البرامج التلفزيونية المخصصة للأطفال تحتوي كثيراً من مفاهيم ومشاهد العنف، وهذا يؤثر في أبنائنا.

ثم علينا ألا نغفل التغيرات التي طرأت على بنية الأسرة الكويتية بانتقالها من الأسرة الكبيرة إلى الأسرة النواة. سابقاً كان الأب والأم والعم والعمة والخال والخالة يقومون بتعليم الأبناء والإشراف عليهم، واليوم اقتصرت هذه المهمة على الأم فقط، وهي غالباً ما تكون مشغولة، كما إن الدور السلبي للخدم واضح في عملية التربية. وأنا أعتقد أن الأم المتعلمة العاملة ترعى أبناءها على نحو أفضل من غير المتعلمة رغم تواجد الأخيرة مع أبنائها دائماً.

ولا ننسى أن الوفرة المادية التي قدمت للأبناء كل الاحتياجات التي يرغب بها كان لها دور سلبي ومساعد في انتشار الانحرافات والعنف خاصة.

●● صالح العاقل: ليتك تتحدثين عن بيئة العملية التعليمية ودور إدارتكم في تصحيحها. إن المدرسة - وفق استبياناتكم - لاتمثل بيئة صالحة للجم العنف، بل هي عامل مساعد على تجسيده وإبرازه.

كيف يمكن لوزارة التربية، مدعومة من جهات أخرى أن تخلق بيئة أكثر صلاحاً للعملية التعليمية والتربوية؟

● بدرية الخالدي: الوزارة تسعى لتحقيق أهداف التربية، ونحن في الخدمة الاجتماعية ننحاز دوماً إلى جانب الطالب. من الممكن أن تكون النظرة القائلة إن المدرسة بيئة غير صالحة وغير محببة للطالب صحيحة، وذلك لأنها لا توفر ما يحبه الطلاب من أنشطة، ولأن حوالي ثلثي المدرسين غير تربويين، سواء بسبب ضغوط المناهج التي يقدمونها أو لأنهم يعتبرون التدريس مجرد وظيفة. وأنا أعتقد أنه على كلية التربية ألا تخرج إلا الأشخاص المعدين إعداداً جيداً، فالعلاقة مع الطالب تحتاج إلى فن.

هناك جذور اجتماعية أيضاً في التنشئة، فهناك مدرس كويتي، دخل متحمساً إلى المرحلة الثانوية، وسارت أموره كمدرس وتربوي على ما يرام مدة قصيرة، لكنه - كما قال - اضطر لأن ينقلب شخصاً آخر، حتى أنه استخدم العنف لـ «يفرض احترامه داخل الفصل» وأصبح الضرب بنظره «وسيلة لضبط العنف».

نحن في الخدمة الاجتماعية والنفسية نقوم بدراسة المشاكل الاجتماعية والنفسية التي يتعرض لها بعض الطلبة سواء كانت في المنزل أو المدرسة ونضع الحلول لها، فالاختصاصي الاجتماعي حلقة وصل بين الأسرة والطالب من جهة والمدرسة من جهة أخرى، وهو يجري اختبارات الذكاء على الطلبة الذين لا يصلحون للتعليم العام ويحولهم إلى مدارس التربية الخاصة أو المجلس الأعلى للمعاقين أو بطيئي التعلم.

وهو عضو في مجلس إدارة المدرسة، ويفتح ملفات للحالات الفردية، ويتعامل مع الحالات الجماعية من خلال المجتمع بالمحاضرات والندوات لتوعية الأسرة وإبراز دورها. ونحن في الإدارة شكلنا لجاناً مختصة لدراسة مشاكل التدخين والمخدرات، وأجرينا دراسات حول ظاهرة العنف وحلولها، ونقوم بالتنسيق في عملنا هذا مع جهات ووزارات عدة مثل وزارة الصحة ووزارة الشؤون ووزارة الأوقاف، وأتمنى إنشاء لجنة عليا لمتابعة وتفعيل هذا التنسيق.

بدرية الخالدي

●● صالح العاقل: أستاذ عبدالله العازمي أنت مدير إدارة رعاية الأحداث التي تعتبر مصفاة لظاهرة العنف عامة والعنف في المدارس خاصة. أين تجد جذور هذه الظاهرة؟ وما الدور الذي تقوم به إدارتكم للحد منها؟ وأي طابع يغلب على ممارسة هذه الإدارة، هل هو الطابع التوعوي أم العقابي؟

● عبدالله العازمي: لقد تطرق الإخوان إلى أسباب الظاهرة، خاصة دور الأسرة في إشاعتها أو الحد منها، وهو الدور الذي اعتقد أنه من أهم أسباب الانحرافات الخطيرة. وإن كان ذلك لا يجب أن يعمينا عن دورالإعلام في مفاقمة هذه الظاهرة، فإنني أعتقد أن السبب الجوهري للعنف في مجتمعنا - ومن ثم في مدارسنا - هو التراخي في تطبيق القانون .. بل عدم تطبيقه إطلاقاً.

مثال: بعد تطبيق الداخلية لقانون جمع السلاح وقيامها بتفتيش المنازل لمصادرته وجمعه لم تحدث أية حادثة عنف كان السلاح جزءاً منها أو سبباً فيها، واستمر هذاالأمر حتى عام ١٩٨٨، لكن بعد تدخل معين ألغي هذا القرار، فكثرت حوادث القتل والعنف التي يكون السلاح جزءاً منها.

نحن نعرف أن أسباب المشكلة التي تعالجها هذه الندوة هي الأسرة والمدرسة والمجتمع، لكن الحل يكمن في تطبيق القانون. كيف؟

بتفعيل وتطبيق قانون الأحداث الذي يعاقب رب الأسرة إن أهمل تربية أبنائه بالسجن من ثلاثة أشهر إلى ثلاث سنوات. لكن أين الجهة التنفيذية أو القضائية التي تفعل ذلك؟

ثم هناك رفاق السوء الذين يزداد خطرهم في سن المراهقة. أنا لا ألوم إدارة الخدمة الاجتماعية والنفسية أو وزارة التربية فالاختصاصيون الاجتماعيون قليلون. في مدرسة تضم تسعمائة طالب تجد اختصاصياً اجتماعياً واحداً، ما الذي يستطيعه لوحده؟ لذلك لابد من إعادة الاعتبار للتربية في البيت .. في كنف الأسرة.

في مركز الأحداث لدينا اختصاصي اجتماعي لكل عشرة أو اثني عشر حدثاً، بينما يجب توفير اختصاصي اجتماعي واحد لكل خمسة أحداث، نظرياً.

هناك جهات كثيرة تصدر إحصائيات ودراسات، لكن المشكلة هي من يقرأ أو يطلع أو يستبق ظهور الحالات المرضية.

قالت الأخت بدرية: «نحن ننحاز دوماً إلى جانب الطالب»، ولكن هل هذا صحي؟ إذا اعتدى مدرس على طالب بالشتم أو السب فإن الأمر يصعد إلى المنطقة التعليمية وربما الوزارة، وتتخذ بحقه إجراءات عقابية .. ولكن بم يعاقب طالب اعتدى على مدرس؟يتم فصله يوماً أو يومين ثم يعود إلى المدرسة وكأن شيئاً لم يكن. هذا يفسد العملية التعليمية برمتها.

إن القانون يصنف العنف في أبواب كالقتل، والتهديد

● بدرية الخالدي:

- مجتمع المدرسة جزء من المجتمع عامة وعندما يكون العنف موجوداً في المجتمع فسيكون موجوداً في المدرسة.

- التغيرات التي طرأت على بنية ووظيفة الأسرة الكويتية وشيوع ظاهرة الخادمة/ المربية إضافة إلى الوفرة المادية وغيرها أسباب موضوعية لظاهرة العنف.

- نحن ننحاز دوماً إلى جانب الطالب ونعلم أن المدرسة لا توفر كثيراً من الأنشطة له .. ثم إن ثلثي المدرسين غير تربويين- اضطراراً أو عدم كفاءة-.

- اختصاصيونا يدرسون مشاكل الطلبة سواء في البيت أو المدرسة وهم حلقة وصل مهمة مع أسر الطلاب .. لكن مرتباتهم قليلة ونظرة المجتمع إليهم دونية وإدارات المدارس لا تقيم لهم وزناً.

- هناك نمط «لا ثقافي» شائع في مجتمعنا يؤصل ظاهرة العنف في نفوس أبنائنا وخطتنا للجم الظاهرة طبقت في جميع مدارس الكويت هذا العام.

● عبدالله العازمي:

- التفكك الأسري وإعلام الإثارة من أهم أسباب العنف .. لكن التراخي في تطبيق القوانين - بل عدم تطبيقها مطلقاً - هو بيت الداء.

- لا يمكن لوم إدارة الخدمات الاجتماعية والنفسية فالاختصاصيون قليلون جداً .. ما الذي يمكن أن يفعله اختصاصي واحد في مدرسة بها تسعمائة طالب؟

- هل الانحياز إلى جانب الطالب دوماً صحيح؟ بم يعاقب طالب اعتدى على مدرس؟ وإن فصل يومين أو ثلاثة وعاد .. ألا يفسد هذا العملية التعليمية والتربوية برمتها؟

- منذ عام ٢٠٠٣ فقط لدينا في مركز الأحداث ١٢٠٧ حدث وخلال الأعوام الخمسة الماضية سجلت ٧٩٤٣ قضية أحداث نسبة (العنف) منها ٥١,٦٪ .. وحول إلينا منها ٤١٠٣ حدث.

- مكتب الإنماء الاجتماعي بالديوان الأميري ومجلس الوزراء مهتمان بالظاهرة وكل تقاريرنا السنوية تنتهي بتوصيات.. لكن من يطبقها؟

عبدالله العازمي

بالقتل، وإلحاق الأذى البليغ، والضرب والتشاجر والقذف والسب .. وقد ارتكب أحداث خلال السنوات الخمس الماضية ٧٩٤٣ قضية، وهذا الرقم يدل على القضايا المسجلة فقط، عدا القضايا التي تمت تسويتها في المدارس والمخافر. وقد تم نتيجة ذلك تحويل ٤١٠٣ أحداث إلى مركز الأحداث، وبمراجعة سجلات القضايا نجد أن العنف يمثل ٥١,٦٪ منها، مما يؤكد ما قلته قبل قليل من أن العلاج الناجع هو تطبيق القانون.

أما بالنسبة لسؤالك حول طبيعة عملنا، فإن إدارة الأحداث تعتبر جهة علاجية، ولدينا جهاز فني كفؤ، يضم مجموعة من الاختصاصيين الاجتماعيين والاختصاصيات الاجتماعيات اللواتي يزرن الأهل ويدرسن أوضاعهم ويتلمسن حلولاً لمشكلاتهم.

ولإدارتنا الحق في إبقاء الحدث لديها وعدم إعادته إلى منزله إذا رأينا أن أسرته غير مؤهلة أو أن منزله غير صالح.

وبالإضافة إلى جهود جهازنا الفني فإننا نحظى بدعم من وزارة الأوقاف - إدارة التوجيه والإرشاد، وهيئة التعليم التطبيقي ووزارة التربية، ومؤسسة غراس..

ومنذ عام ٢٠٠٣ فقط لدينا ألف ومائتان وسبعة أحداث موزعون كما يلي:

من سن ١٥ - ١٦ سنة ٣١١ حالة
من سن ١٦ - ١٧ سنة ٤٠٧ حالة
من سن ١٧ - ١٨ سنة ٤٨٩ حالة

● صالح العاقل: إذا كانت الجهات المسؤولة لا تقرأ الدراسات والاستبيانات أما من جهة تزوركم وترى بأم العين هذا الواقع المأساوي الذي يعكس نتائج العنف ومظاهره فتهب لمعالجة الظاهرة؟

● عبدالله العازمي: منذ فترة كان هناك اجتماع في الديوان الأميري- مكتب الإنماء الاجتماعي، وتم طرح هذه المشكلة، وتكلمنا عنها وعن أسبابها وحلولها الممكنة، كذلك مجلس الوزراء مهتم وهناك توجه لعمل دراسة، وأختم: كل التقارير السنوية تخرج بتوصيات لكن المشكلة هي في عدم وجود من يقرأ تلك التوصيات .. أو يعمل على تنفيذها.

● صالح العاقل: نأمل أن يجد اقتراح الأستاذة بدرية بتشكيل لجنة تنسيق عليا لمتابعة تنفيذ التوصيات بشأن العنف في المدارس، والعنف في المجتمع عامة طريقه إلى النور، فربما يكون خطوة مهمة في طريق الحل.

ننتقل الآن إلى الأستاذ صباح عبداللطيف المالك، الذي عمل في المجال التربوي فترة طويلة، فلعل في خبرته وتجربته التربوية ما يساهم في تسليط الضوء على موضوع ندوتنا.

أستاذ صباح كيف ترى إلى منشأ العنف في المدارس، وهل يقوم الاختصاصي الاجتماعي بدوره في الحد منه، أم أن النظام التعليمي يمنعه من القيام بهذا الدور؟ وكيف ترى الحل؟

● صباح المالك: بداية اتفق مع الإخوان وخاصة الأستاذة بدرية من أن العنف يبدأ إحباطاً وإهمالاً من الأسرة المفككة ويورد إلى المدرسة.

أنا مثلاً استقبل مئتي طالب جديد كل عام، وفي إحدى السنوات وجدت أن أمهات ١٧٣ منهم مطلقات، و ١٢٠ من هؤلاء الطلبة هم في حضانة الأم!

وهناك عناصر أخرى تلعب أدواراً مهمة في ظاهرة العنف منها طبيعة المنطقة السكنية ومستوى رقابة الأهل على المؤثرات الإعلامية التي يتعرض لها أبناؤهم من تلفاز وفيديو، مع ملاحظة أن كثيراً من الأطفال والناشئة يشترون أفلاماً من الشارع على أساس أنها كرتونية، فإذا بها في الحقيقة خلاعية أو عنيفة، كما أن النمط الغذائي يؤثر بشكلٍ أو بآخر في سلوك الحدث. فمثلاً يحتاج جسم الحدث إلى الفيتامينات - يومياً، لأنها - بعكس البروتينات - لا تخزن في الجسم، وقلة الفيتامينات تساعد على سرعة استثارة الشاب أو الطفل وتدني مستوى استيعابه، ويكفي أن نرى إلى النمط الغذائي السائد في أوساط شبابنا - بل ومعظم شرائح مجتمعنا - والذي يعتمد على الوجبات الجاهزة لنتحقق ليس من أسباب البدانة والمشاكل الصحية حسب، بل والعنف أيضاً.

ورغم أن جانباً من ظاهرة العنف في المدارس يرتبط بضعف الرقابة الأمنية، إلا أن حلولها لا ينبغي أن ترتكز على المعالجة الأمنية فقط. لقد ساهمت التربية - برأيي - في تفاقم هذه الظاهرة بنسبة ٥٠٪، عندما قامت بدمج المرحلتين الابتدائية والمتوسطة في مناطق معينة، لا تصلح فيها عملية الدمج هذه، وبسبب الفارق الكبير بين أعمار طلاب المرحلتين.

وأعود الآن إلى تفاصيل سؤالك: هل هناك إدارة تتابع مع الطلبة بجدية ووفق أسس تربوية سليمة؟ وهل يقوم الاختصاصي الاجتماعي بدوره كما هو مرسوم له نظرياً؟ بل هل يتاح له أن يقوم بهذا الدور؟

إن الاختصاصي الاجتماعي في المدرسة يقوم - واقعياً - بأكثر من دور، وكل من هذه الأدوار بعيد عن عمله الأساسي، لذلك فغالباً ما تكون الحلول التي يقترحها للمشكلات غير ناجعة ولا جدوى منها.

على سبيل المثال: بعد استدعاء ولي الأمر يقوم الاختصاصي الاجتماعي بفصل الطالب، وهذا ليس حلاً ناجعاً، بل هو حل ينسف الدور الطبيعي الذي ينبغي أن يلعبه، وأي شخص في الإدارة يمكنه أن يقوم بعملية الفصل.

وضمور دور الاختصاصي الاجتماعي حيال مظاهر العنف أو الانحرافات الأخرى يؤثر سلبياً على العملية التعليمية برمتها، فعدم قدرته على حل مشكلات الطلبة يبقيها قائمة، ما يؤثر على المدرسين طوال العام الدراسي.

علاج الظاهرة ليس في الإحصائيات والاستبيانات، بل في ترجمة توصياتها على صعيد الفعل اليومي في المجتمع والمدرسة والوزارات المختلفة.

هناك عدد كبير من الحالات التي واجهتني أثناء العمل التعليمي والتربوي تدل عى أن معظمنا يفتقد إلى التوازن بين الإغداق على الأبناء وتلبية جميع احتياجاتهم، والقسوة غير المبررة في عقابهم عندما يهملون واجباتهم.

وأنا اتفق مع الأستاذ عبدالله حول ما ذكره عن أهمية تطبيق القانون، لكني لا أتخيل قانوناً في الدنيا يمكن أن يجبر الآباء والأمهات أن يصبحوا آباء وأمهات حقيقيين إن لم يكونوا كذلك.

● عبدالله العازمي: اسمح لي بتعقيب بسيط حول ما ذكره الأستاذ صباح حول التفكك الأسري والطلاق

تحديداً كمسبب من مسببات العنف لدى الأحداث.
في إدارة الأحداث وجدنا أن نسبة الانحراف لدى الأبناء الذين يعيشون مع أبيهم وأمهم هي ٧٢٪ مقابل ٣٪ لدى أبناء المطلقات. وترتيب نسب الانحراف هي:
في المرتبة الأولى: أبناء يعيشون مع أبويهم.
في المرتبة الثانية: أبناء يفتقدون أباهم.
في المرتبة الثالثة: أبناء من زواج متعدد.
في المرتبة الرابعة: أبناء مطلقات.
وهذه النسب توضح أن وجود الأبناء في كنف والدين يعيشان سوية في بيت واحد لا يحميهم من الانحراف والسلوك العنيف، وذلك لأن الوجود المادي للأبوين ليس هو المهم، بل الوجود المعنوي الذي يترجم اهتماماً ومتابعة ومراقبة تربوية، وعلى النقيض من ذلك فإن الأم المطلقة - كما يدل ترتيب نسب الانحراف - هي الأكثر اهتماماً، ربما لتعويض النقص أو الفراغ الذي يسببه افتقاد الأب، وهذا واضح من إحصائيات المدارس.

●● صالح العاقل: أستاذ مسلم، لقد أخبرتني أنك قبل التحاقك بإدارة تنمية المجتمع عملت اختصاصياً اجتماعياً في وزارة التربية لثماني سنوات. كيف تقيم هذه التجربة وما الذي يمكن أن تقوله لزملائك في المدارس .. ولمدير إدارة الخدمات النفسية والاجتماعية - طالما هي بيننا الآن - عل ذلك يساهم في تسليط الضوء على موضوع هذه الندوة؟

● مسلم السبيعي: أولاً إن مهنة الاختصاصي الاجتماعي بأيد غير كويتية، واختلاف الأفكار والعادات ما بين «المعالج» وصاحب المشكلة «الطالب» يشكل حاجزاً أمام حلها بل يسهم في مفاقمتها. وعندما يكون الاختصاصي الاجتماعي هو ابن المجتمع الذي يعالج مشكلاته يكون لديه قدرة أكبر على معرفة تلك المشكلات وفهم طريقة التفكير التي نشأت عنها، خاصة وأن النظار والوكلاء ليسوا على دراية بمهام ووظائف الاختصاصي الاجتماعي، وهم في الأعم الأغلب يكلفونه بمهام عقابية ضد الطلبة، ما يتنافى مع مبادئ مهنته، بل ينسف أسسها، لأنه يجب أن يكون قريباً من الطلبة، وجزءاً منهم، لا جزءاً من الإدارة.
إن إدارة الخدمات الاجتماعية والنفسية في الوزارة مقصرة في دعم الاختصاصيين الاجتماعيين، وهم لا حيلة لهم لأسباب كثيرة.

●● صالح العاقل: هذا كلام برسم اهتمام الأستاذة بدرية، ولا شك أنه سيكون موضع تفاعل في إدارة الخدمات النفسية والاجتماعية في وزارة التربية، سواء بالنسبة لزيادة عدد الاختصاصيين الاجتماعيين أو إعادة الاعتبار لدورهم العلاجي، ورفع التسلط الإداري عنهم .. وتأهيل غير المؤهل منهم.
لقد أشرتم جميعاً إلى دور الإعلام في مفاقمة ظاهرة العنف، وبالتأكيد فإن المقصود هو القنوات الفضائية الإخبارية، أو تلك التي تبث مواد وبرامج وأفلاماً لا تتفق وعادات وتقاليد مجتمعنا، أو تلك التي يكون الهدف من ورائها الربح عبر المتاجرة بالغرائز الإنسانية.
وفي الحقيقة فإن كثيراً ممن التقيتهم وأنا أحضر لعقد هذه الندوة كانوا يشيرون إلى الصفحة الأخيرة من

صباح المالك

جريدة «الرأي العام» وأخبارها التي يعتقدون أنها تشجع على العنف (!).
لذلك دعوت «الرأي العام» وحضر عنها الزميل داهم القحطاني، لا ليدافع عن الصفحة وإنما ليشرح المفهوم الذي ترتكز عليه سياسة النشر فيها.
ولا أريد أن استبق رأيه لكني اعتقد أن الإعلام يحمل قسطاً أكثر مما ينبغي من مسببات العنف لدى الناشئة والأطفال، فهو في النهاية يفضح مظاهر الظاهرة أكثر مما يؤسس لها. والتقنين الواعي عبر اهتمام ومراقبة الأهل التربوية للوسائل الإعلامية يجعلها نافعة أكثر مما هي ضارة. إن جذور المشكلة في المجتمع نفسه، لافي ما ينشره الإعلام.. تفضل أستاذ داهم.

● داهم القحطاني: كنت أتمنى ألا تتكلم عن «الصفحة الأخيرة» كون الكلام عن الإعلام في الإطار العام. إن أخطر مافي ظاهرة العنف توفيرها البيئة المناسبة للجريمة التي تنمو بوجود العنف، وقد أصبح لدينا في الوقت الحالي «صغار المجرمين» أي الأطفال والشباب صغار السن الذي يرتكبون الجرائم.
أنا أعتقد أن الحل يكمن في تفعيل دور المؤسسات الرسمية، لكنه حل بعيد المنال، فهذه المؤسسات وموظفوها مقيدون بالنظم الإدارية والروتين والقوانين المكبلة، لذلك علينا إيجاد البديل، وهو تشجيع مؤسسات المجتمع المدني وتوفير الأرضية الفضلى لعملها في مجال التصدي لظاهرة العنف والعنف في المدارس خاصة.
كما لابد للمدراء والمسؤولين من النزول إلى الشارع ومخاطبة الناس وتحسس المشكلة بأنفسهم. لقد أثمرت تجربة «غراس» لأنها نزلت إلى الشارع وخاطبت الناس بمصطلحات بسيطة، ورغم أن مشروعها إعلامي محض إلا أن صداه كان كبيراً جداً.
وبالعودة إلى أسباب ظاهرة العنف في المدارس فإنني أرى أن مجانية التعليم واحدة منها، فالمجانية تشيع شعوراً عاماً باللامبالاة لدى الطلبة والأهل والمدرسة، أما الخدمة المأجورة فإنها تحث الناس على التدخل والمناقشة، لشعورهم أن «المؤسسة التي تقدم تلك الخدمة تعمل بنقودهم. ومجانية التعليم هي ما يجعل معظم الآباء لا يسألون عن أبنائهم في المدارس الحكومية، فيما نرى آباء الطلاب المسجلين في المدارس الخاصة لا ينقطعون عنهم، سؤالاً ومتابعة، ومحاسبة للجهاز الإداري والتعليمي.
من هنا لابد من رفع تكلفة عدم اهتمام الآباء - وأولياء الأمور عامة - لماذا لا تتم معاقبته قانونياً، كما اقترح الأستاذ عبدالله؟
وربما يحدث ذلك لماذا لا يتم «إزعاجه» شخصياً من قبل المدرسة، وجعله دائم القلق حيال تقصيره في متابعة تعليم وتربية أبنائه.
لقد اقترح بعض الإخوة تشكيل لجنة عليا .. وما شابه. أعتقد أن هذا لا ينفع، لأنه لم ينفع قبلاً، فهو يخفض مستوى الاهتمام. الأولى والمفروض أن تكون أول مهمة لمجلس الوزراء الاهتمام بالأمور الصغيرة، وإلا كيف نخلق مجتمعاً صالحاً؟
الأسرة قضية دستورية أولى، وتستحق أن تهتم بها أعلى سلطة تنفيذية في الدولة.

● صباح المالك:

- التفكك الأسري وطبيعة المنطقة السكنية وضعف رقابة الأهل على المؤثرات الإعلامية والتنشئة الشائعة الخاطئة مصادر للعنف في المدارس.

- الاختصاصي الاجتماعي في المدرسة يقوم بأكثر من دور إلا دوره .. وعلاج ظاهرة العنف يكمن في تطبيق توصيات الدراسات على صعيد الواقع في المجتمع والمدرسة والوزارات المختلفة.

- لا أتخيل قانونا في الدنيا يمكن أن يجبر الآباء والأمهات أن يكونوا آباء وأمهات حقيقيين إن لم يكونوا كذلك.

- التربية ساهمت في مفاقمة ظاهرة العنف في المدارس عندما دمجت المرحلتين الابتدائية والمتوسطة في مناطق معينة.

- ضمور الدور الحقيقي للاختصاصي الاجتماعي يؤثر سلباً على العملية التعليمية .. وعدم قدرته على حل مشكلات الطلبة يجهض دور المدرس طوال العام الدراسي.

● داهم القحطاني:

- أخطر مافي ظاهرة العنف في المدارس توفيرها البيئة المناسبة للجريمة .. وتفريخها «مجرمين صغاراً».

- المؤسسات الرسمية عاجزة عن التصدي للظاهرة والحل في تشجيع مؤسسات المجتمع المدني للعمل على محاربتها .. فتجربة «غراس» أثمرت لأنها نزلت إلى الشارع وخاطبت الناس بلغة بسيطة.

- مجانية التعليم تشجع اللامبالاة بين الأهل والطلبة .. ويجب رفع تكلفة عدم اهتمام الآباء بأبنائهم سواء بتطبيق القانون أو بالإزعاج الشخصي.

- أين هو إعلامنا الذي يمكنه اجتذاب الشباب والناشئة؟ مشكلة الجيل الجديد عدم وجود بديل .. والمسؤولون الإعلاميون في الوزارات والمؤسسات غير مؤهلين ولا علاقة لهم بالإعلام.

- الإعلام مؤثر في العنف لكنه ليس مسبباً له .. والصفحة الأخيرة في «الرأي العام» عدسة تكبر الواقع الموجود أصلاً.

مدارسنا أقرب إلى سجون، لماذا لا نحولها إلى نواد؟ لماذا لا يقيم ناظر كل مدرسة مقهى للإنترنت، يؤمه الطلاب وقت فراغهم، ليس من ميزانية المدرسة، إنما من أرباح المقصف فقط؟ تتشكل اللجان في كل مكان، وتجتمع من أجل الفائدة المادية لأعضائها فقط، لكن اللجنة الفعلية التي تريد حل المشكلات المكلفة بحلها هي التي تختم اجتماعها بقرار وتعمل على تنفيذ توصياتها على أرض الواقع، وإلا فهي ليست لجنة.

أختم هذه المداخلة بالحديث عن دور الإعلام في ظاهرة العنف: أنا أدين الأفلام والمسلسلات التي تعج بالعنف ومظاهر الانحراف الأخرى، وكذلك الوسائل الإعلامية التي تتاجر بالغرائز البدائية، لكن هذه الأمور مؤثرات وليست مسببات، وفي لغة المختصين هناك فرق بين المؤثر والمسبب، فالأول لا يمكن أن يعمل دون وجود الثاني، وإن كانت «البيئة» ترفضه فلن تتاح له الفرصة.

أين هو ذلك الإعلام الذي يمكنه أن يجتذب الشباب والناشئة في الكويت ويثقفهم بمخاطر العنف أو يوجه اهتماماتهم نحو قضايا إيجابية؟ هذه هي المشكلة، ليس هناك بديل، لذلك فالشباب وحتى الأطفال يتوجهون نحو إعلام آخر. ثم لو دققنا في إدارات العلاقات العامة والدوائر الإعلامية للوزارات والمؤسسات التي يفترض أن تقوم بدور إعلامي توعوي فسنجد أشخاصاً غير مؤهلين، ولا علاقة لهم بالإعلام، أما بالنسبة إلى الصفحة الأخيرة في جريدة الرأي العام، فما هي في الحقيقة سوى عدسة تكبر الواقع الموجود أصلاً، ولا أريد أن أبدو كمادح نفسه، لكن الوقائع تؤكد أن سمو الأمير قد تدخل شخصياً ثلاث مرات لحل بعض المشاكل التي طرحتها هذه الصفحة، وهذا رصيد إيجابي.

● صالح العاقل: كيف ترى د. عويد إلى الدور النموذجي للاختصاصي الاجتماعي الذي ينبغي أن يمارسه كخطوة واقعية أولى لمعالجة ظاهرة العنف والانحرافات الأخرى في المدارس؟ وهل توافق الأستاذ مسلم على أن الاختصاصي الاجتماعي الكويتي أكثر قدرة على التعامل مع مشكلات الطلبة الكويتيين؟ ولماذا يتسرب هؤلاء من مدارس الكويت إلى وظائف أخرى؟

● د. عويد المشعان: الاختصاصيون الاجتماعيون في مدارسنا غير مهنيين، وهم يشغلون وظائف إدارية بحتة، لذلك ولأنهم لا يمارسون الهدف الأساسي من عملهم برصد ودراسة مشكلات العنف المدرسي، فإن تلك المشكلات تكبر وتصبح مثل كرة الثلج.

إن نقل الطالب من مدرسة كإجراء عقابي لتعاطيه مخدرات أو الاعتداء على مدرس أو طالب آخر ليس حلاً للمشكلة، بل توسيعاً لنطاقها.

لدينا هنا مشكلتان: الاختصاصي لا يطبق - أو لا يتاح له أن يطبق - ما تلقاه من علوم في حياته الجامعية على الحالات التي تعرض عليه. وخريجو الجامعات يلتحقون بوظائف لا علاقة لها بتخصصاتهم، وفي الحالتين نخسر الإبداع.

بالنسبة إلى ما تفضل به الأستاذ مسلم، نعم. الاختصاصي الاجتماعي الكويتي أكثر قدرة على مثيله من الجنسيات الأخرى على التعامل مع حالات العنف والانحراف في مدارسنا، ربما لأنه يستطيع إخجال الطالب، وجعله يلتزم معه، ويحسن سلوكه، لكن لابد

داهم القحطاني

لإدارة الخدمة الاجتماعية والنفسية في وزارة التربية من إعادة النظر في عملية تأهيل الاختصاصيين، فالتخرج في الجامعة ونيل الشهادة ليس نهاية المطاف، إذ يجب المتابعة والعمل على رفع سوية الثقافة والمعرفة والإطلاع المستمر على إنجازات علم الاجتماع وعلم النفس .. هذه عملية تراكمية.

ثم إن على المخططين للمستقبل أن يدركوا أن المدرس ليس عنصراً تقنياً محضاً في العملية التعليمية وحسب. فالعمل على تخريج مدرسين مؤهلين من كلية التربية يساهم بشكل كبير في حل مشكلة العنف والحفاظ على القيم الاجتماعية والإيجابية للمجتمع. إنني أعتقد أن المدرس الجيد يجب أن يشتمل دوره على جزء كبير من دور الاختصاصي الاجتماعي في تعليمه وسلوكه وتوجيهه. هكذا يكون المدرس مربياً أيضاً. فمثلاً إذا وجد سلوكيات عنيفة معينة لدى الطلبة يقوم بتوجيههم نحو نشاط آخر لامتصاص ذلك السلوك، وهذا ما يسمى بـ« تعديل السلوك».

إن المدرسة - برأيي - هي مثلث متساوي الأضلاع (الإدارة ، الطالب، المدرس) وللحد من ظاهرة العنف - ولنجاح العملية التعليمية والتربوية عامة - لابد أن «تنزل» الإدارة من عليائها إلى الطالب، كما لابد أن تكون علاقة المدرس بالطالب علاقة ديناميكية، وفيها بعد عاطفي، لأن العديد من طلبتنا يفتقدون هذا البعد في علاقاتهم بأسرهم، وتعويضهم عن هذا النقص يساعد في كسب اهتمامهم وترقية أرواحهم.

وأعتقد أن العمل على تغيير مفهومنا عن الذات مهم جداً. لدى أبنائنا نزعات خير كبيرة، إنهم كنوز دفينة تحتاج إلى من يستثمرها ويجسدها واقعاً.

● عبدالله العازمي: هذا كلام صحيح، لكن على أرض الواقع الاختصاصي الاجتماعي هو من يواجه مشكلات الطلبة، أو من يحتم عليه عمله وتخصصه أن يواجهها، لذلك لابد من رفع سويته المعرفية بين فترة وأخرى من خلال دورات تدريبية لمواكبة تطور الحياة بشكل عام.

لقد خصصنا - في الشؤون - استشاريين، يرجع إليهم، الاختصاصيون لمناقشة بعض الحالات المربكة.

إن موضوع ندوتنا هذه يتجاوز المدرسة إلى مجتمعنا ذاته. هناك تغيرات لابد من دراستها وتطبيق التوصيات الناجعة بشأنها، فمثلاً لم يكن آباء معظمنا يقرؤون ويكتبون، ولكنهم كانوا شخصيات متكاملة ومنسجمة وشقوا طرقاً صائبة في الحياة، وكان جيل الأبناء الذي تلاهم كذلك .. فيما نجد اليوم الآباء والأمهات متعلمين أما الأبناء فإنهم....

أعود وأكرر: الحل هو القانون. تطبيق القانون.

●● صالح العاقل: كما سمعت- أستاذة بدرية - هناك كثير من اللوم لإدارتكم. نظرياً أنتم تقومون بعملكم على أكمل وجه، لكن واقعياً يتسرب الاختصاصيون الاجتماعيون الكويتيون إلى وظائف أخرى فيما تستخدم المدارس الاختصاصيين غير الكويتيين في أعمال إدارية حيناً، وهراوة ضد الطلبة حيناً آخر.

أنتم تعقدون الحلقات النقاشية ويعد باحثوكم الاستبيانات (المخيفة) حول العنف في المدارس، لكنها تطبع وتجلد وتوضع في الأدراج وعلى الأرفف، ولا ترفعون الصوت لمجرد الإشارة إليها، فما بالك بتطبيق توصياتها؟ ما الذي تفعلونه إذن، وأنتم خط الدفاع الأول - واقعياً - في مواجهة ظاهرة العنف في المدارس؟

● بدرية الخالدي: أشكر اهتمام الإخوان وحديثهم المسهب عن دور الاختصاصيين الاجتماعيين، وأبدأ بالأسباب التي تجعل العنصر الكويتي يفرّ إلى وظائف أخرى.

أولا: مرتب الاختصاصيين قليل بالقياس إلى طبيعة عملهم. ونحن نحاول التغلب - ما أمكننا - على هذه المشكلة، ففي هذا العام أقرت مكافأة لهم. صحيح أنها متواضعة، ولكنها تشجع.

ثانياً: النظرة الدونية السائدة في المجتمع لعمل الاختصاصي الاجتماعي، فهو «يعمل في مدرسة .. ومكتبه غير فاخر .. وغالباً ما يكون في ركن قصي من المدرسة».

ثالثاً: عدم احترام إدارات المدارس لعمل الاختصاصيين، فالناظر أو الوكيل يصرخ في وجوههم، وغالباً ما يلغي دورهم.

هذه الأسباب وغيرها تجعل - واقعياً - من مشكلة الاختصاصي الشخصية أهم من مشكلة العنف في المدارس!

نحن في الإدارة نحاول جهدنا مساعدة الاختصاصيين الاجتماعيين والوزارة تولي عملهم الاهتمام، وهي تعمل لتأهيلهم بتسجيلهم في دورات داخلية وخارجية، لكن ما الذي يمكن فعله حيال النظرة الاجتماعية؟

فيما يتعلق بالعنف، دعونا نكن واقعيين. أنا كأم أقوم بتربية أبنائي على نبذ العنف، لكنهم يرون في المدرسة عكس ذلك تماماً. وعندما يتيقن الطفل أو الناشئ أنه لن يأخذ حقه من زميل له إلا بممارسته لفعل عنيف، أو لا يحترمه زملاؤه إلا إذا استخدم العنف، فإنه سيطوح بنظرياتي التربوية، ويعمل وفق خبرته الواقعية التي تعكس «نمطاً ثقافياً» يشيع في المجتمع.

ولتغيير هذا النمط «اللاثقافي» لابد من تدعيم وجود وحضور الاختصاصي الاجتماعي في كل مدرسة، وتوفير الظروف الفضلى له ليمارس دوره الثقافي، كما لابد من وجود إدارات مدرسية حازمة، ومعلمين ومدرسين ناجحين تربوياً، وتفعيل الاهتمام المؤسسي بدور الأسرة. واعتقد أن الإعلام يمكنه أن يلعب دوراً أساسياً في هذا الموضوع، وأنا أقف في صف الإخوة الصحافيين، ولكنني أتساءل: من المستفيد من تضخيم حوادث العنف؟ هل نهدم مجتمعنا من أجل تحقيق زيادة في مبيعات هذه الصحيفة أو تلك؟

● عبدالله العازمي: اسمحوا لي أن اختلف معكم في موضوع الاختصاصي الاجتماعي الكويتي وغير الكويتي. ومن تجربتنا الواقعية أقول إن الاختصاصيين غير الكويتيين هم الأساس لدينا في إدارة الأحداث، وجهودهم واضحة ونجاحاتهم بارزة، وهم الأكثر ثباتاً في عملهم من نظرائهم الكويتيين. ربما طبيعة عملنا الصعبة تنفر العنصر الكويتي ولكن إذا لم يرد أن يعمل في المكان الذي علم وأعد ليعمل فيه، فأين يعمل إذن؟

أما عن التوصيات فاقترح أن تشترط كل لجنة تنفيذ توصياتها، وإلا فلا داعي لوجودها، كما اقترح اللجوء إلى الصحف ووسائل الإعلام الأخرى للضغط على المسؤولين من أجل ذلك.

● بدرية الخالدي: وزارة التربية مهتمة بتطبيق التوصيات التي تخص المدارس، وفي آخر مرة طلب منا مجلس الوزراء خطة للقضاء على العنف المدرسي، وقدمناها في العام ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣ وطبقت على جميع مدارس الكويت.

صالح العاقل

●● صالح العاقل: ألا يفترض أن تظهر بعض النتائج لتطبيق هذه الخطة؟ لماذا لا يزال وضع الاختصاصيين الاجتماعيين، وهم كما اتفقنا خط الدفاع الأول في مواجهة العنف، مزرياً؟ ألا يفترض أن تأخذ الخطة بالاعتبار زيادة أعدادهم، والضغط على الإدارات ليرفعوا عنهم الأعباء الإدارية ليتفرغوا لمعالجة المشكلات .. هل بدأتم مثلاً بتطبيق قانون الأحداث، أو على الأقل التهيئة لتطبيقه، وهو الأمر الذي يؤكد مدير إدارة الأحداث أن لا سبيل للجم ظاهرة العنف في المدارس إلا به؟ ما هي الملامح الرئيسة لخطتكم إذن؟

● بدرية الخالدي: توعية أولياء الأمور والطلبة والإدارة المدرسية، والاستخدام الواسع للإعلام. وفي خطة مكافحة المخدرات قدم لنا وزير الإعلام كتاباً يبين فيه أن هذه التوصية قابلة للتنفيذ، ولا مانع لديه أن تكون جزءاً من الحملة.

موضوع سلب الولاية على الحدث من الأب أو ولي الأمر المقصر يحتاج إلى سن قانون، أسوة بما في الدول الغربية. وبرأيي إن كل شخص يطبق التوصية بطريقته الخاصة .. فالمهم هو التطبيق.

● داهم القحطاني: تواضع التوصيات أمر ضروري، فكلما كانت بسيطة وسهلة سَهُلَ تطبيقها. نحن في دولة مؤسسات وقانون، وكل عمل تنفيذي يحتاج أداة تشريعية فاعلة. من المهم التركيز على موضوع معين أو مطلب معين وإعطائه الوقت الكافي والرعاية الكاملة، فهذا خير من طرح عدد كبير من المحاور .. وتشتيت الأذهان بها.

وأود التعقيب على ماتفضلت به الأستاذة بدرية: الإعلام سلاح ذو حدين، وبرأيي فإن المستفيد من نشر الأخبار - مهما كانت - «وتكبير» المشاكل هو المجتمع كله، فإثارة موضوع العنف في المجتمع قد تكون مادة جيدة وحافزاً لبحث علمي يقدمه أحد المختصين، أو ربما متناً لخطبة من أحد الأئمة يقدم من خلالها الفائدة للمجتمع .. وبشكل عام أنا أؤمن بـ «الصدمة» كأسلوب من أساليب العلاج.

وكمثال على ذلك فقد نشرت «الرأي العام» منذ فترة تحقيقاً عن عاملين انفجر بهما التكييف، وهما يقومان بتركيبه، ما أدى إلى قطع يد أحدهما. وقد أثار نشر التحقيق مع صور الشخصين كثيراً من الضجة لكن ذلك عاد بنتائج إيجابية على المجتمع إذ قامت كثير من الشركات بإعادة تأهيل عمالها وزادت اهتمامها بعوامل الأمن والسلامة، كما أضيفت إلى العقود الحكومية اشتراطات أكثر دقة بموضوع الأمن والسلامة واعتبرت جزءاً مهماً من ترسية العقود عموماً، أنا لا أنفي أنه قد يكون للإعلام دور هدام، لكنه يتمتع أيضاً بدور إيجابي وبناء في كثير من الجوانب.

●● صالح العاقل: للإعلام دور إيجابي بالتأكيد، وما ندوتنا هذه إلا مظهر من مظاهر الاهتمام الإعلامي بظاهرة، تكاد تكون الأخطر على المجتمع، وذلك لصلاتها المتشعبة بمختلف مناحي التربية والتنشئة والتنمية .. والقانون .. وصولاً إلى القرار السياسي.

في ختام هذه الندوة أشكر لكم حضوركم ومداخلاتكم التي أثرت - بلاشك - موضوعها، وأتمنى أن تثمر جهودنا في تطويق ظاهرة العنف في المدارس، والعنف عامة، وتنفيذ توصيات الندوات والحلقات النقاشية الخاصة بها.

● صالح العاقل:

- بروز العنف مرتبط ببنيات المجتمع المؤسسة وأساليب التنشئة المتبعة فيه .. والتحولات القيمية منشؤها التحولات في نمط الحياة.

- المجتمع الكويتي فتي جداً .. ومستقبل الدولة والمجتمع رهن بسوية الأجيال القادمة ولابد من قراءة نقدية للمشكلات كحزمة واحدة.

- أرقام الإحصاءات والاستبيانات الخاصة بالعنف المدرسي جرس إنذار .. وتفاقم الظاهرة يحتم معالجة مختلفة.

- المدرسة - وفق الاستبيانات الرسمية - لا تمثل بيئة صالحة للجم العنف والتلقين كأساس لعملية التعليم يوفر أساساً نفسياً له.

- للإعلام دور رئيس في معالجة الظواهر السلبية في المجتمع .. وهذه الندوة تجسيد لدوره هذا.

أزمة الهوية في المجتمعات العربية المعاصرة

أ.د. علي سعد وطفة

• التوصيف الأدق للوضعية المأساوية للمجتمعات العربية ليس الأزمة .. بل تصدع الهوية وانهيارها.

يأخذ مشهد الانهيار والتراجع مكاناً مميزاً في تضاريس الحياة العربية المعاصرة. ويتمثل في وضعية التصدع والإنشطار في بنية الوعي وفي مشاعد الهوية والانتماء. لدرجة أن مفهوم الأزمة يفقد قدرته على توصيف هذه الوضعية التراجيدية إلى حد كبير، لأن حجم المعاناة التي تعيشها الأمة العربية يتجاوز حدود هذا المفهوم وقدراته التصويرية. ويمكن لمفهوم التصدع بوصفه تعبيراً يقع بين مفهومي الأزمة والانهيار أن يساعدنا في التحرك بين مضموني هذين المفهومين. فالتصدع الذي يتبدى أفقياً وعمودياً في مختلف اتجاهات الحياة الثقافية العربية يتبلور ويأخذ مداه في معالم الهوية العربية وصورتها كتعبير ثقافي يجسد أعمق مكنونات الحياة الثقافية والاجتماعية. وبالتالي فإن تحليل مضامين ووضعية مقومات هذه الهوية يشكل منطلقاً منهجياً في تفسير الواقع العربي باختناقاته وأزماته وصيروراته.

لقد جلبت لنا الأحداث الجسام في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين بؤساً حضارياً يفوق قدرة الشعوب على الاحتمال. وقد تداخلت في عناصر هذا البؤس مختلف العوامل الداخلية والخارجية التي تكاملت في تدمير مقومات الهوية العربية والتشكيك في احتمالات المستقبل العربي في مختلف التوجهات وفي تنوعات المقاصد. ويكفي المرء أن يشير إلى الهزائم المتلاحقة للعرب في هذه المرحلة التاريخية في مختلف مجالات الحياة السياسية والاجتماعية، كالمعاناة في نضالهم ضد العدو الصهيوني، والحرب العراقية الإيرانية، والحرب الأهلية في لبنان، والغزو العراقي للكويت، وأخيراً وليس آخراً أحداث وتداعيات الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ التي جرّت على الشعوب العربية مزيداً من القهر السياسي والإعلامي والثقافي. ويضاف إلى هذه الأحداث الخارجية مآسي العمق الداخلي الذي يتجلى في استمرارية أنساق التعصب والتسلط والتخلف وغياب الديمقراطية، وتراجع قيم الإنسان، وحقوق الوجود.

إن الدراسة المنهجية للتصدع الذي تعانيه الهوية العربية تشكل واحداً من التحديات الفكرية التي تواجه الباحثين والمفكرين في مجال فهم حركة الواقع الاجتماعي العربي وتكويناته. فالذات العربية تعاني من وضعية الأزمة والتصدع والانهيار وبالتالي فإن «دراسة هذه الذات العربية الممزقة تشكل تحدياً رئيسياً بين التحديات التي تواجه الباحث في مجال فهم حركة الواقع الاجتماعي العربي واستيعاب تعرجاته وتداخلاته بعيداً عن التصورات النظرية المجردة، والقوالب الفكرية الجامدة.

لقد بينت الأبحاث الجارية في هذا الميدان اهتزاز صورة الهوية العربية عند العرب. وبينت أيضاً تراجعاً في الصورة الإيجابية للإنسان العربي التي تجسدت عبر الجغرافيا والتاريخ والحضارة. فالإنسان العربي يكاد يكون خجلاً من صورته التي ترسمها الدوائر الصهيونية في العالم، والعروبة أصبحت بالنسبة لكثير من العرب لعنة تصُب مشاعر الخزي والعار على أصحابها وأحبابها.

حتى أن إحساس الانتماء إلى الشخصية الإسلامية كوجه من وجوه العروبة بدأت تفقد تألقها وبدأت تشهد تراجعا خفياً مضمراً يتسلل خلسة إلى أعماق الوعي واللاشعور، ولقد حدث ذلك ويحدث تحت تأثير عوامل متنوعة ومختلفة أهمها اليوم الضخ الإعلامي الغربي الذي يشوه صورة العرب والإسلام ويعمل بكل الفعاليات النفسية على تدمير هذه الصورة وإدانتها، حيث اشتد سعير الحملة الإعلامية الغربية ضد صورة العرب ووجودهم بعد أحداث سبتمبر. والأدهى من ذلك كله أن الشعوب المستضعفة أيضاً، حتى الإسلامية منها، بدأت تنظر إلى «العربي» بوصفه عنصراً إرهابياً يجب تجنبه والحذر منه. وباختصار يعيش الإنسان العربي أزمة هوية وانتماء ويعاني حالة تصدع في المشاعر الوطنية والقومية إنه يعيش وضعية الزمن الصعب زمن التراجع والانهيار والسقوط.

فإشكالية الهوية والانتماء تطرح نفسها بين القضايا الساخنة في المجتمع العربي المعاصر. وتتداخل حدود هذه المسألة مع منظومة القضايا الفكرية والاجتماعية الحيوية في المجتمعات العربية. وتبدأ هذه الإشكالية بأسئلة قديمة متجددة حول أولوية الهوية والانتماء: هل نحن عرب أم مسلمون؟ هل نحن أبناء الوطن أم أبناء العشيرة؟ هل نحن أبناء الطائفة أم أبناء الدين؟ وعلى الرغم من البساطة التي تأخذها صيغة هذه الأسئلة، فإن الإجابة عنها بوضوح يمكن أن تؤسس لرؤية اجتماعية بالغة الأهمية والخصوصية في المجتمع، كما أنه يمكنها أن تقدم صورة موضوعية للهوية التي يحتكم إليها الوجود الاجتماعي والسياسي في المجتمعات العربية. ويتأسس على هذا أيضاً أن الصورة الواضحة لمعالم الهوية الاجتماعية يمكنها أن تلقي الضوء على جوانب أخرى هامة في مستوى الحياة الاجتماعية والسياسية في المجتمع العربي المعاصر.

في مفهوم الأزمة:

يشير مفهوم أزمة الهوية إلى محنة علاقة وجودية بين الإنسان وشروط وجوده. والأزمة هي الوضعية المأزقية التي يوجد فيها الإنسان دون الحلول المطلوبة ما يستثير صراعات وجدانية ونفسية

عنيفة قد تؤدي إلى الخلخلة بوحدة الشخصية وتكاملها وذلك في المستوى الفردي وفي المستوى الاجتماعي.
وتشير الأزمة أيضاً إلى المواجهة الإشكالية للفرد إزاء معضلة أو مشكلة تستعصي على الحل. وغالباً ما تعني الأزمة وضعية تدهور وانهيار وتصدع، كأن يقال تدهور أخلاقي أو تدهور ثقافي وعلى المنوال نفسه يقال انهيار نفسي واجتماعي أو تصدع ثقافي أو تداع أخلاقي ومثل هذه الكلمات تصب جميعاً في مفهوم الأزمة سواء أكانت ثقافية أم اجتماعية أم سياسية.
ينطوي مفهوم الأزمة على تناقض بين أمرين أو أكثر وينطوي هذا التناقض بدوره على صراع يفترض به أن يكون على درجة عالية من الشدة. وعلى المستوى الأخلاقي تبرز الأزمة عندما يقع الفرد ضحية واجبين متكافئين من حيث الأهمية مثل الصراع بين واجب التضحية للوطن وواجب التضحية للأسرة بين حب الأسرة وحب الوطن مثلاً في آن واحد والأمثلة هنا أكثر من أن تعد وتحصى. ولكن عندما تتوازن قيمتان عند الفرد أو الجماعة فإن ذلك يؤدي إلى صراعات عنيفة يعبر عنها بالأزمة. وعندما يتبنى المرء نظامين مختلفين من القيم فإن ذلك يؤدي أيضاً إلى أزمة قيمية.

أهم مظاهر الأزمة الثقافية

عندما تعاني الثقافة من غياب الوحدة، بمعنى انطوائها على عناصر متناحرة، ومن سوء الأداء الوظيفي بمعنى عدم قدرتها على أن تقدم للمجتمع منظومة متكاملة من الإجابات التي يطرحها العصر والتغيرات، وعندما تعاني من الجمود، حيث تتحجر وتتصلب وتفقد مرونتها المطلوبة في الاستجابة لمعطيات الحياة والوجود تتعرض هويتها للأزمة. وهي عندما تعاني الخلل الزمني، بفقدها لمعادلة التوازن بين الأزمنة (الماضي، الحاضر، المستقبل) وتتخندق في الماضي بصورة كلية فلا تستطيع الموازنة بين متطلبات كل زمن برؤية حضارية تكاملية فإنها تحاصر نفسها في أزمة وجودية خانقة.
ومن مظاهر الأزمة أيضاً وقوع الثقافة في حالة تناقضات الانتماء والصراعات النفسية والاجتماعية، إذ يشعر الفرد - والجماعة - بنوع من التمزق بسبب الصراعات التي يعيشها في دائرة ثقافته بين الانتماء إلى مرجعيات متنافرة، فتنمو الانتماءات الضيقة على حساب الشمولية.
وثقافتنا العربية تعاني جميع مظاهر هذه الأزمة.

الكيانات المتعارضة وأزمة الانتماء

بحكم انتماء الإنسان العربي المعاصر، إلى المشهد التراجيدي للحياة العربية، فإنه يعاني أزمة هوية وانتماء تتصف بطابعي العمق والشمول. وتعود هذه الأزمة في بعض جوانبها إلى وجود الإنسان العربي في ظل كيانات اجتماعية متعددة ومتعارضة، تبدأ بالقبيلة والطائفة حيناً وتنتهي بالدين وبالقومية

• هزائمنا أمام «الخارج» ومآسي العمق الداخلي فرض علينا بؤساً حضارياً تجلى في تمزق الهوية والنظر إلى العروبة باعتبارها «لعنة».

• تحجر ثقافتنا وما ضويتها وعجزها عن تقديم منظومة إجابات عن أسئلة العصر والتغيرات نمّي الانتماءات الضيقة على حساب الشمولية.

• التناقضات القيمية الثقافية الحادة توجد في أصل أزمة الهوية وانشطاراتها.

• أزمة الهوية هي محنة علاقة وجودية بين الإنسان وشروط وجوده .. يفتقد فيها الحلول المطلوبة ما يؤدي لخلخلة الذات فردياً وجماعياً.

أحياناً.

وبالتالي فإن تعددية الانتماء وتناقضاته التناحرية تؤدي إلى حالة من الإنشطار في الهوية الاجتماعية، وإلى حالة من التمزق الوجداني الداخلي عند الإنسان العربي، الذي تتخطفه، وفي الآن الواحد، مشاعر انتماء اجتماعية متعارضة ومتنافرة في مختلف المستويات والاتجاهات.

إن تنامي مشاعر الانتماء الطائفي والقبلي أدى إلى ولادة موجة عارمة من مشاعر الولاء والتعصب بمستوياته المختلفة، فأغلب المجتمعات العربية تعيش تحت تأثير موجة من القيم التعصبية والتمييز الطائفي والإقليمي والعشائري والعرقي، التي تنخر عظام الوجود الثقافي في الحياة العربية المعاصرة. وفي غمرة هذا النمو الكبير لهذه الولاءات الضيقة بدأ الإنسان العربي المعاصر يتعرض لكل أشكال الاضطهاد والتمييز والتسلط، ويعاني مختلف ألوان التعصب والقهر، حيث بدأت قيم التسامح تسجل غياباً كاملاً وتترك مكانها لقيم التعصب الطائفي حيناً والعشائري أحياناً.

التناقضات القيمية وأزمة الهوية في المجتمع العربي المعاصر.

تعرف القيم الثقافية بأنها قواعد السلوك والقوانين التي يرى أنها تتطابق مع مثل أعلى يرجع إليه وتفرض القيم الثقافية نفسها في أي مجتمع على صورة أنساق متكاملة تتراجع فيها التناقضات ويسود فيها نظام أولويات يعطي لهذه الثقافة مرونتها وقدرتها على تنظيم الكون وتوجيه السلوك في المجتمع. وعلى خلاف ذلك عندما يغيب التناسق والتكامل بين منظومات القيم فإننا إزاء أزمة ثقافية أو قيمية. والثقافة ظاهرة اجتماعية نفسية تحتل مكانها في عقول الأفراد وتتجلى في سلوكهم وتصرفاتهم اليومية وفي نمط معيشتهم. وبالتالي فإن التناقض بين قيمتين داخل النمط الثقافي يجد صداه داخل الجهاز النفسي ويظهر على شكل تصرفات سلوكية وردود فعل متناقضة وعصابية ويبقى الصراع مستمراً حتى يستطيع الشخص تعديل وظائف القيمتين داخل جهازه النفسي.

وتأسيساً على ذلك يمكن القول بأن التناقضات القيمية الثقافية الحادة توجد في أصل أزمة الهوية وانشطاراتها. ومن يعاين وضعية الثقافة العربية المعاصرة سيجد أن هذه الثقافة متشبعة بالتناقضات الفارقة التي تؤسس لحالة الأزمة التي تعيشها الهوية العربية.

فالثقافة العربية تشكل مسرحاً للتناقضات الشاملة بين القيم والمبادئ، بين الشعارات والإنجازات، بين التصرفات والممارسات. وهذه هي الحقيقة التي يشير إليها زكي نجيب محمود حيث يقول «تترامى الثقافة العربية في نظام تتعايش داخله وبشكل تقاطعي شبكة من النزعات والاتجاهات التي يعوزها الائتلاف ويسودها الاختلاف. فهناك الثقافة العربية الكلاسيكية التي تمجد الماضي وتقدسه، وهناك الثقافة العربية الحديثة التي يعيش فيها الفرد وبفعل ازدواجيتها في ضياع شبه تام لأن زمنها الثقافي بعيد كل البعد عن ذاتية الفكر العربي

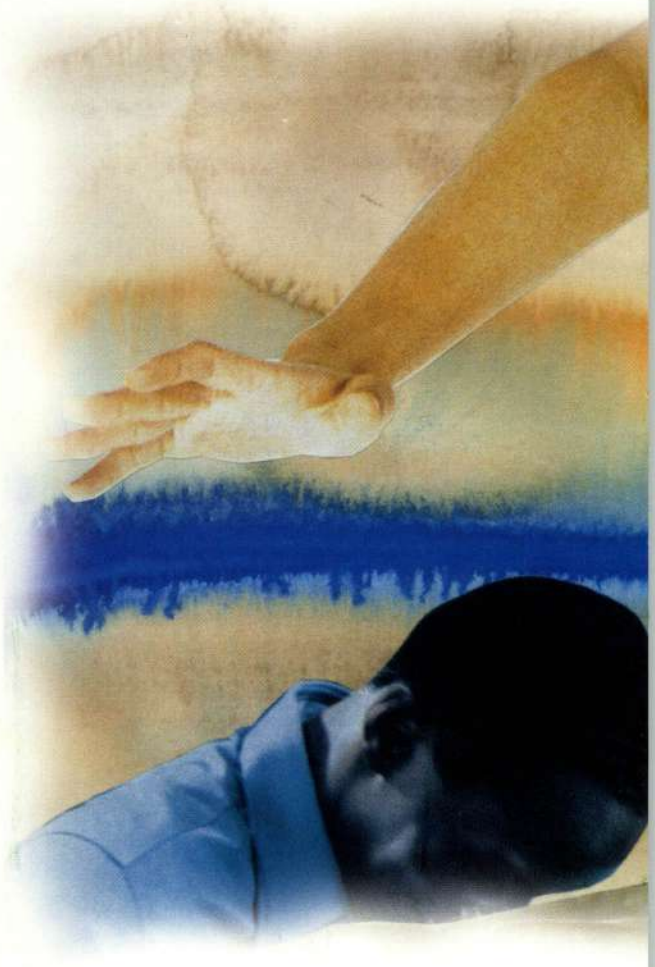

وخصوصياته الحضارية والثقافية».
ففي جدل العلاقة بين الإنسان والثقافة تتصدع الشخصية تحت تأثير التصدع الثقافي الذي يعتري الثقافة السائدة. ويتمثل تصدع الهوية الشخصية وأزمتها في نسق من الأمراض والعقد النفسية وحالات الوهن والضعف والقصور التي تنال من الشخصية الإنسانية. وإذا كان تصدع الثقافة يتمثل في أزمة القيم أو ازدواجيات القيم فإن أزمة الهوية تتمثل في نماذج من الازدواجيات السلوكية التي تودي بتماسك الشخصية وتخل بتوازنها وتثقل على إمكانات تكيفها واستمرارية توافقها مع الوسط والوجود الاجتماعي وعلى خلاف ذلك كله كلما كانت الثقافة متكاملة في معاييرها القيمية كانت الشخصية مرنة وإنسيابية ومتكاملة في حركة تكيفها واستمرارها. وهذا يعني بالضرورة أن التكامل القيمي في الثقافة يؤدي إلى التكامل النفسي والعقلي والاجتماعي في الشخصية الإنسانية.
لقد بينت الدراسات الجارية في مجال غسل الدماغ أن بناء التناقض في الوسط يؤدي إلى بناء التصدع في الشخصية ويؤدي إلى انهيارها. وعلى هذا الأساس تقوم تجارب علم النفس الفيزيولوجي عند «بافلوف» ولا سيما في تجاربه حول العصاب عند الكلاب. فالعصاب يتشكل عند الحيوانات عندما يتعرض الكائن لحالات في منتهى التناقض وفي لحظة واحدة ومثال ذلك تعريض الكلاب في وقت واحد للثواب والعقاب مثل قطعة اللحم التي تترافق بصدمة كهربائية. وبعبارة أخرى تعريض الحيوانات لمثيرين متنافرين متناقضين في آن واحد حيث يستثير أحدهما تعزيزاً بينما يستثير الثاني إحباطاً. ومثال ذلك أن يتعرض كلب جائع لمثيرين متناقضين في آن واحد يتمثل الأول في رنين جرس يعقبه تعزيز بقطعة لحم بينما يتمثل الثاني في ضوء يعقبه صدمة كهربائية وعندها تتمازج استجابتان متناقضتان وفي آن واحد عند الكلب وهما: استجابتا الإحساس بغامر السعادة لحضور قطعة اللحم، بينما تتمثل الاستجابة الأخرى في إحساس بالرعب والخوف الشديد من وقع الصدمة الكهربائية. وفي هذه اللحظة يقع الكلب فريسة إحساسين متناقضين كلياً قوامهما الفرح والخوف ويبدأ بالعواء والرقص وتتداخل استجاباته بصورة غريبة يفقد بعدها تماسكه وتناغم استجاباته، ويصاب بحالة من العصاب الشديد الذي يفقده توازنه ويؤدي به إلى حالة من الجنون التي وصفها بالعصاب الكلي.
وفي مستوى الإنسان طبقت مثل هذه الأساليب ولا سيما في السجون النازية والبلشفية لغسل الدماغ عند أسرى الحرب ومن الأساليب التي اعتمدت على سبيل المثال ما يسمى بتنافر الزمن وهو أن يقدم للسجين طعام الإفطار ومن ثم وبعد دقائق يقدم له طعام الغداء، والغاية هنا هي هدم التناسق الزمني في بنية الشخصية. وخلاصة ما نريده هنا هو أن القيم تمثل مثيرات سلوكية وعندما تحتد التناقضات بين هذه المثيرات فإن هذا قد يؤدي إلى خلل في الشخصية وإلى أزمة في الهوية. ومثال ذلك تجاذب الشخص في وقت ما بين قيمتي حب الوطن وحب الأبناء. ومثال ذلك موقف الملوك والقادة الذين رفضوا الانصياع لأوامر أعدائهم تحت تهديد العدو بتعذيب أبنائهم الذين يوجدون تحت سيطرة العدو وفي سجونه. وأمثلة التناقض القيمي لا تحصى ومثالها أيضاً التناقض بين حب الأم وحب الزوجة، بين حب الذات وحب الآخر في صورة الإيثار والتضحية، بين حب الابنة ومقتضيات الشرف التي تدعو إلى قتلها عندما ترتكب عاراً في الثقافة التقليدية. فالشخصية تكون نهباً للصراعات عندما تواجه بسيل من التناقضات الثقافية وبالتالي فإن هذه الصراعات تضعف الشخصية وتجعلها في حالة أزمة وضعف وانهيار تؤثر على مجمل القدرات والإمكانات والفعاليات التي تنال من تلك الشخصية وتضعف تكاملها.
ويستنتج مما سبق أن الثقافة التي تفيض بالتناقضات الثقافية والقيمية تؤدي إلى بناء شخصيات متصدعة وضعيفة تعاني من مختلف أوجه القصور والضعف والانهيار. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ما هو مستوى التناقضات التي توجد في منطق الثقافة العربية السائدة.

الجلسة الأولى

وزير التربية والتعليم العالي
د. رشيد الحمد يلقي كلمته

قضايا العراق ومشكلاته قبل الحرب عليه وبعدها...

الأوضاع الراهنة في العراق.. الآثار القانونية

متابعة: عماد المنصور

● د. الملحم: حالة العراق اليوم فريدة فلا سلطة أو حكومة شرعية فيه... وهي تثير أسئلة قانونية كثيرة لابد من إجابات عنها.

ضمن فعاليات كلية الحقوق في جامعة الكويت، تم إقامة مؤتمر الأوضاع الراهنة في العراق (الآثار القانونية) والذي أقيم تحت رعاية رئيس مجلس الوزراء الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح. وقد استمر هذا المؤتمر مدة يومين على مسرح المرحوم الأستاذ: الدكتور عثمان عبدالملك بكلية الحقوق الكائنة بالشويخ.

ولئن كان قد أقيم العديد من المؤتمرات حول الأوضاع الراهنة في العراق، إلا أن هذا المؤتمر اختلف من ناحية الجوانب التي تم التطرق إليها، ألا وهي: الآثار القانونية خاصة في ضوء المستجدات التي استدعت الدراسة خاصة وأنه حتى الآن لا وجود للسلطة الشرعية الدائمة في العراق. لذلك تم التطرق إلى الجوانب السياسية والاقتصادية في هذا المؤتمر، الذي أخذ صفة العالمية حيث تم استضافة عدد من الخبراء والأساتذة القانونيين من مصر والأردن وفرنسا وسوريا والولايات المتحدة ومشاركة عدد من أعضاء مجلس الحكم الانتقالي في العراق.

قدمت في المؤتمر ١٨ ورقة علمية خلال ٦ جلسات عقدت على مدى يومين متتاليين، في الافتتاح ناب عن رئيس مجلس الوزراء وزير التربية الدكتور رشيد الحمد الذي بدأ كلمته بنقل تحيات رئيس مجلس الوزراء الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح وتقديره للجامعة وكلية الحقوق لعقدها هذا المؤتمر، متمنياً التوفيق والنجاح والسداد للمشاركين والحاضرين.

وأضاف د. الحمد: «أن حرب تحرير العراق كانت زلزالاً قوياً لا غنى عنه، هز المنطقة وخلصها وخلص شعب العراق من نظام لم يعد خفياً ما أنزله بالأمة العربية من كوارث ومصائب».

والآن تبدأ مرحلة جديدة في حياة الشعب العراقي يتطلع فيها ويعمل على صيانة حاضر آمن يسير به وبالمنطقة إلى مستقبل تنعم فيه الشعوب بأمنها وحريتها ورفاهيتها، ولاشك في أن هذه المرحلة تعد من المراحل المهمة في تاريخ منطقتنا عامة والعراق خاصة، أي ننتظر أن يكون العراق الجديد بعيداً عن التشوه سليماً من كل ما يجعله غير متوافق مع العالم ومسلماته التي لا حياة لدولة دون استيعابها أو التوافق معها، وإن مؤتمرنا هذا هو البوتقة التي تنصهر فيها الآراء ويتم فيها عرض التطورات وتبادل وجهات النظر في ضوء إدراك واع واسترشاد بالقوانين الدولية والمحلية ومراعاة للمواريث التي يلتقي على الاستمساك بها أبناء المنطقة وسائر أبناء الأمة العربية».

بعد ذلك تلا الدكتور أحمد الملحم عميد كلية الحقوق كلمة بهذه المناسبة التي قال فيها: «إن هذا المؤتمر هو الأول من نوعه الذي يعقد في دولة الكويت لمناقشة الجانب القانوني للحالة الراهنة في العراق وأهميته تكمن في كون هذه الحالة فريدة وجديدة تستدعي الدراسة، حيث لا توجد سلطة شرعية قائمة أو حكومة في العراق،

د. أحمد الملحم

الجلسة الثانية

ذلك أن الوضع الداخلي غير مستقر».

وأضاف: «لقد عانى العراق أيضاً من ويلات حروب عديدة ومتوالية في فترة زمنية قصيرة دفعت جزءاً كبيراً من ثمنها دول المنطقة ولاسيما الكويت، وذلك بفعل نظام حكم ظالم إرتدى لباس الطهر والعفة مخفياً في ثناياه أفعالاً شيطانية تسعى للسيطرة والتوسع. وعليه يأتي هذا المؤتمر لمناقشة الوضع الراهن في العراق من الناحية القانونية البحتة ومن منظور القانون الدولي والوطني: سواء أكان القانون الخاص أم العام أم الجنائي.

ويتصف هذا المؤتمر بجملة من الخصائص تتمثل في الأصالة القانونية وجريان الأحداث وعدم ثباتها وفضل السبق في دراسة الحالة وتحليلها القانوني وتأصيلها العلمي، مما يلقي عبئاً ثقيلاً على المؤتمر ويوسع من مجال الآراء القانونية والخلافات الفقهية وهو أمر يرتقي بالقيمة العلمية للمؤتمر الذي يثير جملة من الأسئلة القانونية التي تتطلب الإجابة عنها في ضوء الظروف المحيطة بتطبيق النظريات القانونية كتدخل الولايات المتحدة الأمريكية بالظروف المنوه بها، والسؤال عن شرعية الإدارة المدنية واختصاصها وحجية قراراتها، وشروط إجراءات المحكمة المختصة بمحاكمة مجرمي الحرب العراقيين والوضع القانوني للاستثمار وعقود الإعمار في العراق».

مشكلات... وآمال

- **الجلسة الأولى:** ناقشت الأبعاد القانونية والسياسية للحرب على العراق ورأس الجلسة وزير العدل أحمد باقر العبدالله، وتحدث فيها كل من مدير إدارة المتابعة والتنسيق بوزارة الخارجية السفير خالد محمد المقامس، فتطرق إلى الأبعاد السياسية الإقليمية والأوضاع الراهنة في العراق مسلطاً الضوء على الوضع العراقي بشكل عام والوضع العراقي الجديد وآثاره على دول الجوار، واختتم بحثه بالقول: ليس من السهل وضع تصور محدد لما سيؤول إليه الوضع في العراق مستقبلاً وإن كان يحدونا الأمل في إقامة نظام ديمقراطي يتعايش مع جيرانه بأمن وسلام.

كما شارك في هذه الجلسة أستاذ القانون الدولي العام بجامعة الكويت الدكتور مصطفى سلامة، فتحدث عن مفهوم الشرعية الدولية في الأزمة العراقية... قراءة في القرارات الدولية بشأن العراق. أما الدكتور أحمد أبو الوفا - أستاذ القانون الدولي العام في جامعة القاهرة - فقد تحدث عن «حرب العراق وآليات الأمن الجماعي».

- **الجلسة الثانية:** ناقشت وضعية الإدارة المدنية في العراق، وترأسها أ. د. أحمد عبدالرحمن الملحم - عميد كلية الحقوق في جامعة الكويت، وقد تطرق أ. د. محسن العبودي - أستاذ القانون العام بكلية الشرطة بجمهورية مصر العربية إلى «مدى إلزام العقود التي أبرمها النظام السابق في العراق للإدارة المدنية المعينة من قبل قوات التحالف»، فيما تحدث الدكتور محمد المقاطع - أستاذ القانون العام بجامعة الكويت عن الوضع القانوني لمجلس الحكم الانتقالي في ضوء قرارات مجلس الأمن.

- **الجلسة الثالثة:** تم في هذه الجلسة استعراض محور الدستور العراقي المرتقب، وترأسها رئيس الهيئة الاستشارية للمجلس الأعلى لدول مجلس التعاون الخليجي وأستاذ القانون الخاص بجامعة الكويت ووزير الإعلام السابق الدكتور بدر جاسم اليعقوب، وقد تحدث فيها كل من عضو مجلس الشعب السوري جورج جبور، الذي تناول مبحث «العروبة الإسلامية وحقوق الإنسان في الدساتير العراقية»، والدكتور محمد الفيلي - أستاذ القانون العام بجامعة الكويت، الذي تحدث عن «الدستور العراقي المتصوَّر».

- **الجلسة الرابعة:** خصصت هذه الجلسة لمناقشة محور «ضحايا الحرب»، وترأسها د. عبدالرسول عبدالرضا - رئيس إدارة الفتوى والتشريع السابق،

● د. باقر: ليس سهلاً تصور مستقبل العراق الآن... ويحدونا الأمل في أن يحظى بنظام ديمقراطي يتعايش مع جيرانه بسلام.

تكريم وزير التربية

جانب من الجلسة الثالثة

• د. العنزي: لابد من جبر ضرر الأسرى ودولهم... والمسؤولية القانونية تقع على عاتق العراق ودول تحالفي عام ١٩٩١م و ٢٠٠٣م.

وقد تحدث فيها أستاذ القانون الخاص بجامعة الكويت الدكتور ابراهيم الدسوقي أبو الليل فتطرق إلى محور «تعويض ضحايا الحرب بين القانون الدولي والداخلي»، موضحاً أن القاعدة العامة في المسؤولية المدنية تقضي إلزام كل من يحدث ضرراً بغيره نتيجة فعله الخاطئ غير المشروع بتعويض هذا الضرر. وبما أن الحرب من الأساس كانت غير مشروعة فإن الأضرار المترتبة عليها تصلح لأن تكون محلاً للمساءلة القانونية المدنية وقيام حق المتضرر ضحية الحرب في نيل تعويض الأضرار، وبما أن المسؤولية تقع على من أحدث الضرر فإن التعويض يقع على الدولة المعتدية تطبيقاً للقانوني الدولي.

وانتهى الدكتور أبو الليل إلى عدم كفاية قواعد المسؤولية المدنية لكفالة حق ضحايا الحرب في حصولهم على تعويض الأضرار التي أصابتهم في الكثير من الحالات، موضحاً أن ذلك لا يعني انغلاق الطريق لتعويض ضحايا الحرب في الحالات التي لا تعينهم أحكام وقواعد المسؤولية المدنية والداخلية والدولية، إذ يمكنهم سلوك طريق آخر هو طريق الضمان الذي لا يستند في تعويض ضحايا الحرب على فكرة الخطة والمسؤولية.

وكانت توصيات د. أبو الليل قد دعت إلى إنشاء صناديق للضمان داخلية ودولية، أي صندوق في كل دولة على حدة وصندوق دولي تساهم في تمويله جميع دول المعمورة وتكون مهمة هذه الصناديق تعويض ضحايا الحرب في حالة عدم تمكنهم من الحصول على هذا التعويض من دولهم أو من الدول المعتدية أياً كان السبب بحيث تكون صناديق الضمان هذه ملاذاً لهم.

من جهة أخرى كان للدكتور عيسى العنزي - أستاذ القانون الدولي العام بجامعة الكويت بحث حول «انتهاكات القانون الدولي الإنساني في حق الشهداء من أسرى الكويت وغيرهم»، وقد شدد من خلاله على ضرورة إظهار الحقائق كاملة بشأن وضع

جانب من الجلسة الرابعة

معرض مكتب الشهيد

الأسرى الكويتيين وحالتهم، خاصة وأن الأمور تسير في اتجاه فقدان الآمال بوجود أحياء منهم وهو ما أشار إليه أمين عام الأمم المتحدة في تصريحه في منتصف شهر ديسمبر ٢٠٠٣م.

وأضاف د. العنزي: «لابد من جبر الضرر الذي تعرضت له كل من الدول التي يتبعها هؤلاء الأسرى، والأسرى أنفسهم وذووهم، وجبر هذا الضرر يتطلب نسبة المسؤولية لشخص من أشخاص القانون الدولي، وهذا الشخص هو العراق ودول التحالف عام ١٩٩١م وتحالف عام ٢٠٠٣م، وبموجبه فإن المسؤولية الدولية تنقسم بين العراق على مقتل الأسرى متى ثبت بأنهم قتلوا في الفترة ما بين احتلال العراق للكويت عام ١٩٩٠م واحتلال القوات الأمريكية للعراق واستلامها دفة الأمور فيه في أبريل ٢٠٠٣م».

وأوضح الدكتور العنزي أنه لابد من جبر الضرر الذي تعرض له الأسرى ودولهم وأسرهم، ولا يكون جبر الضرر إلا من خلال تعويضات مادية تكفل لهذه الأسر حياة كريمة وتفسح لهم المجال بالقيام بمشاريع خيرية وممارسة العبادات كالحج والصدقة عن روح هؤلاء الشهداء، وأنه في حال عجز الحكومة الكويتية عن ملء الفراغ القانوني بشأن المطالبات لأسر الشهداء، فإن فريقاً محلياً ودولياً من رجال القانون يمكنهم أن يقوموا بإجراء مثل هذه المطالبات وتحصيل حقوق أهالي الأسرى جرّاء ما تعرضوا له من ضرر بسبب وفاة أبنائهم من الأسرى.

أما «دراسة البصمة الوراثية ودورها في كشف الجرائم» فقد كان عنوان الورقة التي قدمها في هذا المؤتمر الدكتور بدر الخليفة - مدير إدارة الأدلة الجنائية سابقاً.

محاكمة مجرمي الحرب

- **الجلسة الخامسة:** خصصت هذه الجلسة لموضوع محاكمة مجرمي الحرب، وقد ترأسها

• د. الكندري: الكويت ضحية لجرائم دولية وقعت عليها وعلى شعبها... ولابد من تكييف الدستور الكويتي مع نظام المحكمة الجنائية الدولية.

جانب من الحضور

د. محمد الأنصاري - مدير إدارة العلاقات الدولية بوزارة العدل، وتحدث فيها أ. د. سعيد سالم الجويلي، رئيس قسم القانون الدولي بجامعة الزقازيق بجمهورية مصر العربية والذي طرح محور «الاختصاص القضائي الدولي لمحاكمة مجرمي الحرب»، وقد وضح من خلال بحثه أن إنشاء محاكم دولية تختص بمحاكمة مجرمي الحرب وانتهاكات القانون الدولي الإنساني يخضع من حيث المبدأ إلى اتفاق دولي، مبيناً أن هناك استثناء يتمثل في إنشاء المحكمتين الدوليتين ليوغسلافيا السابقة ورواندا بموجب قرار صادر من مجلس الأمن، مشيراً إلى أن هذا الاستثناء يستند إلى الحالة التي كان عليها النزاع المسلح في هاتين الدولتين.

وأضاف: «تم الآن التوصل إلى نتائج في شأن بحث الاختصاص القضائي الدولي بمحاكمة مجرمي الحرب تتمثل في أن القطاع الوطني هو صاحب الاختصاص الأصيل بمحاكمة مجرمي الحرب مع الأخذ بالاعتبار أن تنص التشريعات الجنائية الوطنية على تجريم انتهاكات القانون الدولي الإنساني والأخذ بالاختصاص العالمي، بالإضافة إلى اللجوء للمحكمة الجنائية الدولية الدائمة متى توافرت الشروط اللازمة».

وذكر الجويلي بأن موضوع محاكمة مجرمي الحرب من الموضوعات التي تستلزم وجود تعاون وتضامن دولي إيجابي يساهم في تحقيق العدالة والقبض على الخارجين على القانون ومحاكمتهم وأن هذه المرحلة لن تأتي إلا من خلال العمل على زيادة الوعي بالقانون الدولي الإنساني وإبرام الاتفاقيات الدولية اللازمة.

من جهته قال الدكتور فيصل الكندري خلال مناقشة محور «محاكمة مجرمي الحرب» والذي تطرق من خلاله إلى «مدى التعارض بين النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية ومبدأ السيادة الوطنية»: إن الكويت ضحية لجرائم دولية وقعت عليها وعلى شعبها، الأمر الذي يجعلها من أكثر الدول اهتماماً بموضوع المحكمة الجنائية الدولية وكيفية التعامل مع أحكامها، مشيراً إلى وجود تعارض بين أحكام النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية والدستور الكويتي وبعض القوانين الداخلية. وشدد د. الكندري على ضرورة أن تسن الكويت تشريعات وطنية تغطي جميع أنواع السلوك الإجرامي في النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية لتتجنب سلب المحكمة الاختصاص القضائي على الوقائع التي لهذه المحكمة ولاية عليها.

ثم قدم الدكتور محمد بوزبر - أستاذ القانون الجنائي الدولي بجامعة الكويت ورقة بعنوان «الاختصاص الموضوعي للمحكمة الجنائية العراقية الخاصة»، ذكر فيها أن جرائم الحرب هي الأفعال التي تقع أثناء الحرب بالمخالفة لميثاق الحرب كما حددته قوانين الحرب وعاداته والمعاهدات الدولية، أي أنها مجموعة الأفعال التي تنطوي على خروج متعمد على قوانين وأعراف الحرب الواردة في اتفاقيات جنيف وملاحقها لعام ١٩٤٩م، وتشمل هذه الانتهاكات - على سبيل المثال - أفعال القتل المتعمد والمعاملة السيئة وإبعاد السكان المدنيين في الأقاليم المحتلة بقصد إكراههم على العمل أو لأي غرض آخر. وبين د. بوزبر أن اختصاص المحكمة الجنائية الخاصة يشتمل من حيث الموضوع وفقاً لنص المادة (١٠) على ٣ جرائم دولية محررة وهي: جريمة الإبادة

تبادل الدروع

الجماعية وجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب، وتم إضافة الانتهاكات لبعض القوانين العراقية.
واختتم الدكتور بحثه قائلاً: «إن المحكمة الجنائية العراقية الخاصة سوف تختص بنظر هذه الجرائم الأشد فظاعة على وجه الأرض، وسوف تحاكم دكتاتور العراق وكبار مجرمي الحرب، ولاشك أنها سوف تحقق العدالة التي طال انتظارها وسوف تعزز وتخدم بناء أمة عراقية جديدة!
وبعد ذلك تحدث الدكتور ابراهيم الجعفري - عضو مجلس الحكم الانتقالي قائلاً: «إن العراقيين قبل غيرهم لم يستوعبوا كامل الجرائم التي ارتكبها صدام حسين الذي دمر البنية الإنسانية العراقية وارتكب جرائم تتسم بالبشاعة والوحشية»، وشدد على محاكمة صدام حسين كمجرم حرب وليس كأسير حرب لبشاعة جرائمه، مبيناً أن أسير الحرب يتمتع بحقوق لا يجب أن يتمتع بها صدام حسين منوهاً إلى «إننا لا ننطلق من عقدة تقبع في أنفسنا لمحاكمة صدام حسين بل ننطلق من مفهوم تحقيق العدالة»، وأعرب الجعفري عن مدى استغرابه من استعداد البعض للدفاع عن صدام حسين داعياً هؤلاء للنظر بسجل صدام الحافل بالإجرام والقتل.
- **الجلسة السادسة:** تناولت الأوراق المقدمة في هذه الجلسة محور الاستثمار وإعادة إعمار العراق، وكان رئيس الجلسة المستشار عادل بورسلي - نائب رئيس معهد الدراسات القضائية والقانونية في الكويت، فيما كان المتحدثون د. خالد زغلول - أستاذ القانون العام بجامعة الكويت الذي تطرق إلى «الأطر القانونية والاقتصادية لإعادة إعمار العراق»، والأستاذ محمد الدلال - محامي مكتب الخبرة للمحاماة والاستشارات القانونية الذي قدم بحثاً حول «الطبيعة القانونية للعمل التجاري والاستثماري في العراق».

نحو إنهاء احتلال العراق... ووحدته

وقد أشارت توصيات المؤتمر في ختام فعالياته إلى ضرورة تفعيل آليات الأمن الجماعي المنصوص عليها في مواثيق المنظمات الدولية وعلى رأسها منظمة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، وتم التأكيد على أهمية التزام سلطة الاحتلال باحترام اتفاقيات جنيف ١٩٤٩م المنظمة لسلطة الاحتلال وقرارات مجلس الأمن ذات الصلة، وإنهاء الاحتلال ونقل السلطة للشعب العراقي في أقرب وقت ممكن وبطرق وأساليب ديمقراطية والدعوة إلى انتخاب حكومة عراقية منتخبة.
كما أوصى المؤتمر بضرورة وضع دستور عراقي يحفظ وحدة العراق ويؤكد هويته العربية والإسلامية ويضمن حقوقاً متساوية لجميع العراقيين بكافة انتماءاتهم العرقية والطائفية والدينية على نحو تنعكس آثاره على تنمية المنطقة واستقرارها وفقاً لعلاقات حسن الجوار.
وطالب المؤتمر خلال ٣ جلسات بمحاكمة مجرمي الحرب وأركان النظام العراقي السابق أمام محكمة عراقية خاصة وفق إجراءات عادلة وشفافة استناداً إلى المبادئ القانونية المعمول بها دولياً وضرورة تمكين الدول المتضررة ورعاياها من تقديم ادعاءاتهم أمامها.
هذا وقد أقيم على هامش المؤتمر معرض شارك فيه مكتب الشهيد بعدد كبير من إصداراته.

الشهيد ناجي العلي.. الرسام الشاهد

عماد عقيل

• لوحاته أشبه بنقط ماء تحفر مجراها في الذهن العربي!!

• سخّر الموهبة والفن في خدمة قضية تحرير الوطن السليب!

• عاش فرسم فأبدع، واشتد ساعده فرسّخ مكانه في القمة!

العروبة

لم يمتشق الشهيد ناجي العلي بندقية في أي معركة في سبيل تحرير وطنه، بل تناول ريشة بسيطة وحولها إلى سلاح ماضٍ صوبه باتجاه أعداء الأمة والوطن، ريشة رسم بها الصورة الكاريكاتيرية دون أن يحملها معاني الفكاهة والمرح - كما هو مألوف - بل جاءت لتنضح بهموم الأمة، وتسجل يوميات الواقع العربي المرير، وتنم عن تباشير الأمل بفجر جديد كان الشهيد توّاقاً للوصول إليه.

بأكثر من أربعين ألف رسم كاريكاتيري طرز الفنان الكبير ناجي العلي صفحات عدد من الصحف العربية، وبلا ألوان لون تفاصيل حياتنا العربية بشذرات موجعة بدت أشد وضوحاً حين استحالت بريشته عارية كالدودة... عاش، فرسم، فأبدع، واستشهد فرسخ أسطورة ناجي العلي ومكانته في القمة كأحد سادة فن الرسم الكاريكاتيري العرب.

صدرت له ثلاثة كتب خلال الأعوام ١٩٧٦م و ١٩٨٣م و ١٩٨٥ واشتملت على مجموعة مميزة من رسوماته.

أقام معارض عدة في كل من الكويت ودمشق وبيروت وعمان ولندن وواشنطن بغية الاحتكاك بالجمهور والتفاعل معه.

كان هذا الفن يلخص الحياة بالنسبة له ويختصرها، فهو أكثر من مهنة أو عمل، ففي مقابلة أجرتها معه د. رضوي عاشور يقول:

«الرسم بالنسبة لي مهنة ووظيفة وهواية، ورغم أنني أعمل رساماً منذ عشرين سنة، إلا أنني لم أشعر أبداً بالرضا عن عملي. أشعر بالعجز عن توظيف هذه اللغة التعبيرية في نقل همي لأن همي كبير، والرسم هو الذي يحقق لي توازني الداخلي، هو عزائي ولكن أيضاً يشكل لي عذاباً. أحياناً أقول إن هذا الكاريكاتور الذي أرسمه يجعل حظي أفضل من غيري لأنه يتيح لي إمكانية تنفيس همي وأن الآخرين قد يموتون كمداً وقهراً من ذلك الهم الذي يجثم على قلوبهم وينفث سمه اليومي فيهم أنا أعرف أن الرسم يعزيني».

حياته... والمعاناة

ولد ناجي العلي عام ١٩٣٦م في قرية الشجرة بالجليل الشمالي، الواقعة بين طبريا والناصرة، لأسرة فقيرة تعمل في الزراعة والأرض. وحين بلغ العاشرة من عمره كانت النكبة والنزوح عن أرض الوطن عام ١٩٤٨م إلى بنت جبيل، ثم إلى مخيم عين الحلوة بالقرب من صيدا في الجنوب اللبناني. التحق بإحدى المدارس المهنية في طرابلس شمال لبنان، وحصل على شهادة دبلوم في علوم الميكانيك ليعمل بعدها في ورش صناعية.

بدأ الرسم مبكراً على جدران المخيم، كان يرسم ما ظل عالقاً في ذاكرته عن ذلك الوطن السليب، ثم انتقلت رسوماته إلى الورق إلى أن جاءه الكاتب المعروف الشهيد غسان كنفاني - الذي أعجب بأول رسم لناجي العلي وهو خيمة هرمية الشكل في قمتها بركان تظهر منه يد تبدو وكأنه مصممة على تحرير الأرض، فأخذ منه اللوحة لينشرها في مجلة «الحرية»، يقول: «وجاء أصدقائي بعد ذلك حاملين نسخاً من «الحرية» وفيها رسوماتي... شجعني هذا كثيراً»، ما حدا بالرسام الكبير بعد ذلك إلى دراسة الفن أكاديمياً، فالتحق بالأكاديمية اللبنانية لمدة سنة، لكنه توقف عن الدراسة لأسباب وظروف مختلفة، فقرر متابعة دراسة الرسم في القاهرة، أو في روما، وكان هذا يتطلب بعض المال، فأراد أن يسافر إلى الكويت لكي يعمل لبعض الوقت... ويجمع بعض المال... ثم ينطلق بعدها لدراسة الرسم.

وقد وصل بالفعل إلى الكويت عام ١٩٦٣م، وعمل في مجلة «الطليعة» حتى العام ١٩٦٨م، يقول عنها: «مجلة الطليعة كانت تمثل التيار القومي العربي هناك في ذلك الوقت... كنت أقوم أحياناً بدور المحرر والمخرج الفني والرسام والمصمم في آن واحد... وبدأت بنشر لوحة واحدة... ثم لوحتين... وهكذا... وكانت الإستجابة طيبة... شعرت أن جسراً يتكون بيني وبين الناس، وبدأت أرسم كالمحموم، حتى تمنيت أن أتحول إلى أحد آلهة الهند القدامى... بعشرين يداً... وبكل يد ريشة ترسم وتحكي ما بالقلب... عملت بصحف يومية بالإضافة إلى عملي، ونشرت في أماكن متفرقة من العالم».

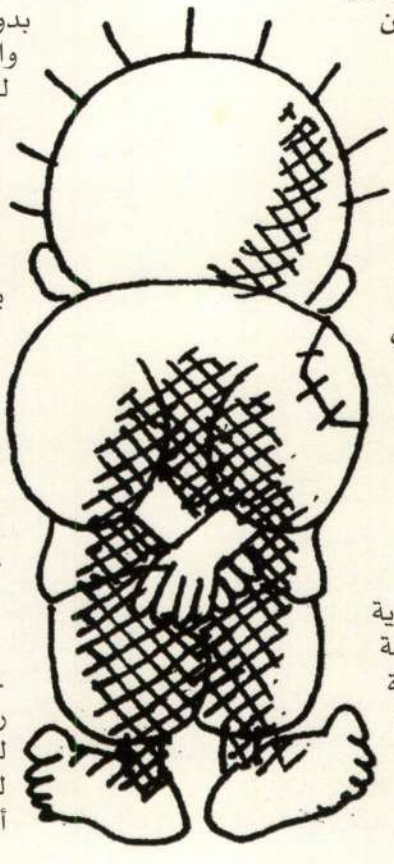

في العام ١٩٦٨م انتقل للعمل في صحيفة «السياسة» الكويتية وفيها ابتكر شخصية «حنظلة» التي قدمها بنفسه لقرائه يوم ١٩٦٩/٨/١٣م.

رموز فنه وأسلوبه

حنظلة طفل صغير نجده في معظم رسوماته شاهداً متابعاً وملاحظاً للمشهد الذي نراه في الرسم، يدير لنا ظهره، ويأتي بأوضاع مختلفة لعل أبرزها يداه الملفوفتان خلف ظهره،

يقول ناجي العلي عنه: «إنه ولد في العاشرة من عمره، وسيظل دائماً في العاشرة، ففي تلك السن غادر الوطن، وحين يعود، حنظلة سيكون... بعد... في العاشرة، ثم يأخذ في الكبر بعد ذلك... قوانين الطبيعة المعروفة لا تنبطق عليه، إنه استثناء... وستصبح الأمور طبيعية حين يعود الوطن».

بالإضافة إلى حنظلة، ثمة شخصيتان أخريان رافقتا مسيرته الفنية الحافلة ولازمتا كل أعماله أحدهما شخصية فاطمة الأم رمز الوطن والحب والعطاء، والأخرى شخصية الرجل البسيط العتيق رمز القهر والألم.

صحيفة «أساهي» اليابانية اختارته كأحد أشهر عشرة رسامين في العالم، وذكرت في تعليق لها على رسوماته بالقول: «إن ناجي يرسم بحامض الكبريتيك، أي بماء النار».

وعن أسلوبه في الرسم الكاريكاتيري بصفة عامة يقول: «إنه أسلوب النكات السوداء، أي أني أحاول أن أجعل الناس يضحكون من واقعهم بمرارة الذي يعرف الشيء ويزعم أنه لا يعرفه، أنا أنقل إحساسي للقراء بكثافة، وبطريقة واضحة سهلة».

حين صدرت جريدة «السفير» في بيروت، اتصل صاحبها طلال سلمان بالفنان الكبير ناجي العلي ودعاه للعمل فيها، وبالفعل عاد إلى لبنان... يقول: «فعدت ولكني تألمت وتوجعت نفسي مما رأيت، فقد شعرت أن مخيم عين الحلوة كان أكثر ثورية قبل الثورة، كانت تتوفر له رؤية أوضح سياسياً، يعرف بالتحديد من عدوه ومن صديقه، كان هدفه محدداً: فلسطين، كامل التراب الفلسطيني».

ذلك الوضع في المخيم قد يفسر ما سيحدث فيما بعد إبان الاجتياح الإسرايلي للبنان الذي جاء بهدف تطهير الجنوب والقضاء على القوة العسكرية الفلسطينية، وفرض الحلول «السلمية» على الشعب الفلسطيني. يقول ناجي العلي في هذا: «الطيران والقصف اليومي من البر والجو، بالإضافة إلى أن الوضع كان عملياً مهترئاً، قيادة هرمت، ومخيمات من زنك وطين، اجتاحها الإسرائيليون وجعلوها كملعب كرة قدم، ومع ذلك وصل الإسرائيليون إلى بيروت وحدود صوفر، والمقاومة لن تنقطع من داخل المخيمات وبشهادات عسكريين إسرائيليين وبشهادتي الشخصية، اعتقلت أنا وأسرتي، كما اعتقلت صيدا كلها، وقضينا ٣ أو ٤ أيام على البحر.

حرق الإسرائيليون المخيم، والأطفال والنساء كانوا مازالوا في الملاجئ، وكانت القذائف الإسرائيلية تنفذ إلى الأعماق، وكان قد سقط مئات الضحايا من الأطفال في المخيم وفي صيدا. هذه صورة مما حدث في مخيم عين الحلوة، وأنا شاهد ولكني أعرف أن هناك صوراً أخرى في مخيمات صور والبرج الشمالي والبص والرشيدية... جماهير الجنوب بما فيها جماهيرنا الفلسطينية المعترة (الفقيرة) هي التي قاتلت وهي التي حملت السلاح ووفاء لهذا الشعب العظيم الذي أعطانا أكثر مما أعطانا أي طرف آخر، وعانى وتهدم بيته، لابد من أن يقول المرء هنا إن مقاومي الحركة الوطنية اللبنانية قد جسدوا روح المقاومة بما يقارب الأسطورة.

في تلك الفترة كان ناجي العلي مازال يعمل في جريدة «السفير»، حيث لعب دوراً بارزاً في رفع

معنويات الناس بالكلمة، بالمانشيت وبالرسم الكاريكاتيري. يقول في هذا السياق: «كنت أسأل نفسي كيف أعبر؟ كنت أشعر بالعجز وأتصور أنه لا يوجد أي شاعر يقدر على تجسيد أي مشهد أو لحظة واحدة من لحظات بيروت، ومع ذلك كنت أرسم... لم أستطع الخروج لتوديع المقاومة ورؤية الناس وهي ترش الزهور والأرز على المقاتلين. أقول عندما بدأ الرحيل ومع أول سفينة غادرت الميناء، رسمت فدائياً يترك السفينة الراحلة ويسبح عائداً إلى الشاطئ، وهو يقول: «اشتقت لبيروت».

لم يحتك ناجي العلي بالوسط الثقافي الفلسطيني، ولم يلج المؤسسات الثقافية التابعة لمنظمة التحرير، إلا في السنة الأخيرة قبل الاجتياح، حيث أصبح عضواً في الأمانة العامة لاتحاد الكتاب. كان راغباً في تعلم فنون القتال، وعندما بدأ الشعب الفلسطيني بالتسلح لم يحاول أبداً أن يطلق رصاصة، فهو غير قادر على ذلك صحياً بسبب العملية الجراحية التي أجريت له. يقول: «سنوات طويلة مرت وأنا أرسم... شعرت خلالها أنني مررت بكل السجون العربية، وقلت: ماذا بعد ذلك؟ كان لديّ استعداد عميق للاستشهاد دفاعاً عن لوحة واحدة... فكل لوحة أشبه بنقطة ماء تحفر مجراها في الأذهان».

في الثاني والعشرين من شهر يوليو (تموز) عام ١٩٨٧م كانت في انتظاره رصاصة غادرة، وهو في الطريق إلى مقر عمله قادماً من منزله في لندن، وعند نزوله من سيارته باتجاه مدخل جريدة «القبس الدولي» فسقط مضرجاً بدمائه، وبعد صراع مع الموت وفي غرفة العناية المركزة دام ثمانية وثلاثين يوماً، توفي يوم السبت ٢٩ أغسطس (آب) ١٩٨٧م، حيث تناقلت وكالات الأنباء العربية والعالمية المختلفة نبأ استشهاد ناجي العلي متأثراً بجراحه في مستشفى «تشارنغ كروس» بلندن نتيجة لهبوط في القلب بعد أن فشلت محاولات إنقاذه منذ إصابته. بعدها بذلت عائلة الشهيد ناجي العلي جهداً لتحقيق وصيته الخاصة بدفنه إلى جانب والديه في مخيم عين الحلوة قرب مدينة صيدا، ولكن تعذر تحقيق وصيته، لهذا دفن في بريطانيا.

الشهيد ناجي العلي رمز من رموز العطاء والعبقرية والوطنية الصادقة، أفاد من موهبته الفذة في الرسم في سبيل خدمة قضية أمته وشعبه، ولاشك أن رسوماته الحنظلية الخالدة بالأبيض والأسود التي تتأرجح دلالاتها ومعانيها بين الفرح والحزن، بين الموت والحياة، ستبقى حاضرة في الأذهان وشاهدة على زمن عربي يتلفع بالتحديات والمآسي إلى يومنا هذا.

بيان حنظلة

في العام ١٩٨٠ [illegible] للعمل في صحيفة «السياسة» [illegible] وفيها ابتكر شخصية «حنظلة» التي قدمها بنفسه لقرائه يوم ١٩٦٩/٨/١٣م:

«عزيزي القارئ، اسمح لي أن أقدم لك نفسي: أنا أعوذ بالله من كلمة أنا... اسمي حنظلة... اسم أبي مش ضروري، أمي اسمها نكبة، وأختي الصغيرة... نمرة رجلي ما بعرف لأني دائماً حافي... ولدت في ٥ حزيران ٦٧... جنسيتي، أنا مش فلسطيني، مش أردني، مش كويتي، مش لبناني، مش مصري، مش حدا... إلخ... باختصار معيش هوية ولا ناوي أتجنس... محسوبك عربي وبس... التقيت صدفة بالرسام ناجي... كاره شغله لأنه مش عارف يرسم... وشرح لي الأسباب... وكيف كل ما رسم عن بلد السفارة بتحتج... الإرشاد والأنباء بتنذر... بيرسم عن علتان شرحه... قللي الناس كلها أوادم... صاروا ملايكة... والأمور ما فيش لأحسن من هيك... وبهالحالة عن شو بدي أرسم؟... بدي آعيش... وناوي يشوف شغلة غير هالشغلة... قلت له: أنت شخص جبان وبتهرب من المعركة... وقسيت عليه بالكلام... وبعدما طيبت خاطره... وعرفتو عن نفسي وأني إنسان عربي واعي بعرف كل اللغات وبحكي كل اللهجات... معاشر كل الناس المليح والعاطل... والآدمي والأزعر... وبتاع البتاع... اللي بيشتغلوا مزبوط واللي هيك هيك... ورحت الأغوار وبعرف مين بيقاتل ومين بيطلع بلاغات بس... وقلت له إني مستعد أرسم عنه الكاريكاتير كل يوم وفهّمته أني ما بخاف من حدا غير من الله... واللي بدو يزعل يروح يبلط البحر... وقلت له عن اللي بيفكروا بالكنديشن والسيارات وشو بيطبخو أكثر مما يفكروا بفلسطين.

ويا عزيزي القارئ:

أنا آسف لأني طوّلت عليك... وما تظن أني تعمدت هالشي عشان أعبّي هالمساحة... وإني بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن صديقي الرسام أشكرك على طول... وبس... وإلى اللقاء غداً...

وبتاع

«حنظلة»

نحو الأرض/الوطن.. والمجتمع/الحاكم...

«هوية الإنسان».. دعوة لنهضة

أ. د. الزواوي بغورة

منذ الخمسينات من القرن العشرين، وعالم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي «ادغار موران» Edgar Morin المولود سنة ١٩٢١م، يعرف حضوراً فكرياً متنامياً وذلك لما تميز به من ملاحظات دقيقة للوقائع الاجتماعية، والقضايا الفكرية الجديدة، التي عبر عنها في عمله الموسوعي الهام الموسوم بالمنهج، الذي ميزه كفيلسوف من فلاسفة الألفية الثالثة، والذي نشر منه إلى حد الآن خمسة أجزاء آخرها: «إنسانية الإنسان: هوية الإنسان»، وهو الجزء الذي نريد أن نتوقف عنده بقليل من الدراسة والتحليل والمناقشة.

وكتاب «هوية الإنسان» كتاب موسوعي، يجمع فروع المعرفة العلمية المختلفة، الطبيعية منها والإنسانية، بالإضافة إلى التاريخ والآداب، وهو كتاب يدعو إلى التواضع والتذكير بأن الكون فسيح وأن المعرفة الإنسانية على ما وصلت إليه من تقدم فهي ليست إلا في بدايتها، وإلى أننا كائنات أرضية ننتمي إلى هذه الكرة الأرضية التي هي بدورها كوكب شديد الخصوصية ضمن المنظومة الشمسية والفلكية. من هنا فإن الكتاب وإن كان يحمل طابعاً موسوعياً، إلا أنه ينتهي بأسئلة حارقة ليس أقلها السؤال عن كيفية خروج الإنسان من حالة التوحش التي يعيش فيها إلى حالة التأنسن التي تليق به.

وبين الدعوى إلى التواضع والانتهاء بالرجاء والأمل، هنالك هذا الإنسان الذي هو جملة من الخلايا العصبية والعلاقات الاجتماعية واللغوية، ذلك الكائن المتميز بالعقل والقابل للجنون، القادر على العمل والغارق في اللعب، المتسامي والوضيع، إنه بكلمة: «الكائن المركب»!

الهوية

يشكل كتاب «هوية الإنسان» الجزء الخامس من مشروع الفيلسوف، ومن الضروري التوقف قليلاً عند معنى المنهج، الذي يقصد منه معناه القديم الذي يفيد الطريق والمسار، أي السير والمشي، لكنه سير غير مبرمج كما ذهب إلى ذلك فيلسوف العقلانية الحديث «رينيه ديكارت». إن المنهج يعني السير في فهم حياة ذلك الكائن المركب والمعقد، ومصطلح «المركب complexe» أو المعقد من المصطلحات العلمية الأساسية في المنظومة الفكرية للعالم والفيلسوف ادغار موران، ويفيد من بين ما يفيد أن الجزء متضمن في الكل وأن الكل متضمن في الجزء، وأن الواحد قائم في المتعدد وأن المتعدد قائم في الواحد. كما أن من دلالات مصطلح المركب في أصله اللاتيني أن كل شيء يعد نسيجاً أو ما ينسج معاً، وعليه فإن الإنسان ليس إلا نسيجاً مشتركاً، إنه نسيج بيولوجي يتكون من الأعضاء والخلايا والوظائف، ونسيج نفسي واجتماعي وثقافي، لذا فإن مفهوم المركب يسمح بدراسة الإنسان ككل غير مجزء.

إنسانية على أساس فكر كوكبي

منطلقات لفهم هوية الإنسان

لكي نعرض بقليل من التفصيل لمسألة الهوية الإنسانية، علينا بداية أن نشير إلى بعض المنطلقات الفكرية للفيلسوف، ولما يسميه على وجه التحديد بالسياسة الحضارية، لأن ذلك سيساعدنا على إدراك مغزى الهوية الإنسانية التي يدعو إليها. ومن بين أهم هذه المنطلقات تصوره العام لمفهوم الحضارة الغربية المعاصرة التي تقودها أوروبا وأمريكا. في تقديره أن هذه الحضارة تمر بأزمة عميقة ومتعددة الأشكال، بحيث تحولت جميع المكاسب التي حققتها خلال القرون الماضية إلى مشاكل مستعصية، وتأزمت الأسس ذاتها التي انطلقت منها هذه الحضارة، فعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن أحد الأسس المشكلة للحضارة الغربية وهو الإيمان بقيمة الفرد، الذي تم التعبير عنه بالنزعة الفردية، وهي فكرة اكتشفها العصر الحديث وبلورها عصر التنوير، تحول إلى مشكلة مستعصية في المرحلة المعاصرة التي تمر بها الحضارة الغربية، بحيث تحولت الفردانية إلى نزعة مضادة لقيمة الفرد وذلك بظهور أشكال من «التذرير atomisation) أي تحويل الفرد إلى ذرة ضمن بنيات عامة وشاملة وقاهرة، كما تعرض الفرد المعاصر إلى أشكال من العزلة القاتلة بفعل التحولات الكبرى التي طرأت على الأسرة سواء من حيث بنيتها وطبيعتها وما نتج عنها من علاقات اجتماعية وعاطفية مغايرة، هذه العزلة التي أدت إلى شيوع ظاهرة التمركز الذاتي أو الانغلاق حول الذات (égocentrisme)، وهو ما أدى بدوره إلى تراجع الأشكال المختلفة للتضامن الاجتماعي.

كما إن التقنية التي تعتبر أحد الأسس المركزية للحضارة المعاصرة، قد طرحت مشكلات أكثر تعقيداً، فهذه التقنية التي حررت الإنسان من الكثير من القيود وحققت له كثيراً من الإمكانيات وسخرت له كثيراً من الطاقات، قد حولت الإنسان المعاصر والمجتمعات المعاصرة إلى نوع من الآلة الرهيبة، آلة محكومة بمنطق الحساب والأرقام والتكميم والقياس، وكذلك الصناعة التي لبت كثيراً من حاجات الإنسان، ووفرت الاحتياجات لأعداد ضخمة من الأفراد، قد تسببت في كثير من المشاكل، على رأسها مشاكل البيئة والتلوث وكل المخاطر التي يواجهها المحيط الطبيعي للبشرية.

وعليه، فإن كل ما يمثل الحضارة المعاصرة من أوجه إيجابية وعوامل ناجعة، وتم التعبير عنها بكلمة التقدم بمختلف معانيه ومظاهره، وخاصة معناه الخطي المتصاعد، الذي يفيد - من بين ما يفيد - أن حاضرنا أفضل من ماضينا وأن مستقبلنا أفضل من حاضرنا، هذا التقدم الذي تحول إلى مثل لجميع المجتمعات الغربية والشرقية على السواء، نراه اليوم ينهار مثل انهيار كثير من الأساطير. من هنا يجب أن نعترف كما يقول الفيلسوف: «إن الحضارة الصناعية والتقنية والعلمية قد خلقت مشاكل أكبر من تلك التي تقوم بحلها».

إلا أن هذه الأزمة البنيوية للحضارة الغربية، هذه الأزمة المتعددة الوجوه والمستويات، لم تعد تخص المجتمعات الغربية فقط، وإنما تشمل العالم - بدرجات مختلفة - وذلك نظراً للطابع العالمي لهذه الحضارة، التي تقوم بتوحيد جميع أشكال التنظيم والتسيير الاجتماعي والاقتصادي للإنسان. فجميع المجتمعات من دون استثناء يذكر، تعمل وإن كان ذلك بطرق مختلفة وأشكال متعددة، على قيام تنمية لها قدرة تنافسية كبيرة، ولكنها تنمية كمية بالدرجة الأولى وتعتمد تقريباً على الوسائل التقنية والصناعية ذاتها، سواء في الشرق أو في الغرب.

إن هذه التنمية في نظر الفيلسوف وعالم الاجتماع، قد طورت جانباً واحداً من حياة الإنسان هو الجانب الاقتصادي، وأهملت جوانبه الإنسانية والأخلاقية يتساوى في هذا المنحى والتوجه المجتمعات المسماة متقدمة والمجتمعات المسماة متخلفة أو السائرة في طريق النمو. وجميع الحلول المقدمة سابقاً لهذه المشاكل، قد تم تجاوزها وإعادة النظر فيها، ولذا فإن من بين التحديات الكبرى لإنسان الألفية الثالثة، هو أن يجد حلولاً جديدة لمشكلات الحضارة الصناعية.

ومن بين أهم هذه التحديات أن الحلول «الاقتصادية» لحاجيات الإنسان والقائمة على استغلال الثروات الباطنية للأرض، قد أصبحت اليوم مشكلة خطرة تنذر بتناقص، بل بنضوب هذه الثروات الطبيعية وعلى رأسها الماء والأشكال المختلفة للطاقة. وكذلك من بين التحديات الكبرى لهذه الحضارة التفاوت النوعي بين التقدير الكمي والنوعي الذي يتم في الغالب على حساب النوعي، وذلك راجع إلى كون الحضارة تقوم - كما سبق - على الكم والعد والحساب، واستبعدت الجانب الكيفي والنوعي لحياة الإنسان، والمأساة كما يقول المؤلف: «إن الحب والمعاناة والرغبة والمتعة والشعر تدخل في الباب النوعي، ولذا يتم تجاهلها».

علماً أن هذه النزعة الكمية للحضارة الصناعية لم تفلح في حل أكبر وأخطر مشكل من مشاكلها وهو البطالة، فجميع الإيديولوجيات والنظريات في التسيير والإصلاح، وقفت عاجزة أمام مشكلة البطالة التي يواجهها إنسان الألفية الثالثة، وما يترتب عنها من آثار سلبية، لعل أولها كيفية تقدير الفرد لذاته وإدراكه لهويته، وهي مشكلة كما تشير جميع الدلائل تزداد تفاقماً يوماً بعد يوم.

وبما أن الحضارة الغربية وصلت إلى هذا المأزق وإلى هذه الدرجة من التأزم، فإن الفيلسوف يرى أنها لا تختلف في هذا الشأن عن جميع الحضارات السابقة التي وصلت إلى هذا الانسداد، بحيث لم يبق أمامها إلا أحد الخيارين، إما التقهقر والتراجع والانحطاط، أو التغيير والتجديد في مختلف النظم والطرق التي

• الكتاب هو الجزء الخامس من مشروع موران الفلسفي... وفيه أسئلة حارقة عن كيفية خروج الإنسان من حالة التوحش الحالية إلى حالة التأنسن اللائقة به.

• المشكلات التي خلقتها الحضارة الغربية أكبر بما لا يقاس من تلك التي تحاول العمل على حلها... و«الفردانية» أدت إلى «التذرير» الاجتماعي للبشرية.

تشكلها. ولا تخرج الحضارة الصناعية المعولمة عن هذا المصير، وفي تقديره أن لهذه العولمة جوانبها التخريبية والهدامة، وخاصة ذلك الجانب المتمثل في اقتلاع الثقافات الخاصة بزعم توحيد الهويات المتنوعة، إلا أنها في نظر الفيلسوف تبقى إمكانية جديدة وهامة أمام إنسان الألفية الثالثة، تظهر هذه الإمكانية في «الأشكال المختلفة للتواصل والتفاهم بين الناس مما يؤدي إلى أشكال مختلفة من التهجين».

إن هذه المحطة الواعدة للعولمة لا يمكن لنا أن نبلغها ما لم نجذر - كما يقول - في وعينا واقعة وفكرة مركزية، وهي أننا جميعاً ورغم اختلاف ثقافاتنا ولغاتنا وأديانا وأوطاننا وتاريخنا، مواطنو هذا العالم، أو بتعبير آخر، إننا مواطنون لهذه المعمورة الواحدة سواء كنا أوروبيين أو آسيويين أو أفارقة أو أمريكان، إننا جميعاً نشكل مواطنة هذا العالم، وإن الوعي الجديد بالجماعة الإنسانية وبمصير الأرض والمعمورة هو الشرط الضروري لتغيير آلية ونظام الحضارة الغربية الصناعية القائمة إلى حد الآن، وبهذا الشرط، يعتقد الفيلسوف أننا يمكن أن نتجاوز الحروب الإثنية وأشكال الهيمنة المختلفة، وما تؤدي إليه من صراعات قومية تمثل من دون أدنى شك الجانب السلبي لعملية توحيد العالم وتضامن الأرض والمعمورة.

من هنا يقترح الفيلسوف ضرورة إقامة بعض المؤسسات العالمية حول البيئة والطاقة والتنمية الإنسانية، أي أنه يجب تجاوز الطرح الفردي والوطني إلى الطرح العالمي وذلك نظراً لتشابك المشاكل المعاصرة وسياسة الحضارة التي يدعو إليها الفيلسوف ادغار موران، هي تلك السياسة التي تجعل الإنسان مركز كل سياسة ممكنة. أي جعل الإنسان وسيلة وغاية في الوقت ذاته، والعمل على تنمية الحياة الفضلى وليس العيش الأفضل، ولا يتحقق ذلك في نظر الفيلسوف إلا بعاملين أساسيين هما: أنسنة المدن وإعمار الأرياف، ولتحقيق ذلك يجب القيام بإصلاح فكري يشمل إصلاح مؤسسات التربية والتعليم والبحث والعامل المقرر في هذا الإصلاح هو ضرورة ربط جميع المعارف والعلوم والتخصصات فيما بينها، أي ما يسميه بتعدد الاختصاصات (pluridisciplinarité). ذلك أن التصنيف القديم للعلوم والمعارف القائم على التجزئة والتقطيع والفصل والمفاضلة بين العلوم وخاصة بين العلوم الطبيعية والإنسانية وما يتضمنه من أحكام قيّمة لاتزال تشكل عقبة أمام فهم سليم للمشاكل، وبالتالي إلى تقديم حلول خاطئة، من هنا يتقدم الفيلسوف بأحد المفاهيم المركزية ألا وهو مفهوم «المركّب» الذي سبقت الإشارة إليه، لأنه يعبر عن السمة المركزية للكائن الإنساني. وبالتالي لا يمكن أن يتم الإصلاح الفكري ما لم تكن هنالك مفاهيم ونظريات تعكس هذا التعقد وقادرة في الوقت نفسه على التعبير والربط بين مختلف المعارف والتخصصات، ففي هذه المرحلة الكوكبية من عمر الكرة الأرضية أصبح من المحال فصل المشاكل الوطنية عن المشاكل العالمية وكذلك استحالة فصل المسائل العلمية بين مختلف التخصصات العلمية والصناعية، مما يؤدي بطبيعة الحال إلى ضرورة قيام تعاون وتبادل سواء بين البلدان المختلفة أو بين الباحثين المنتمين إلى مختلف الاختصاصات العلمية والتقنية والصناعية.

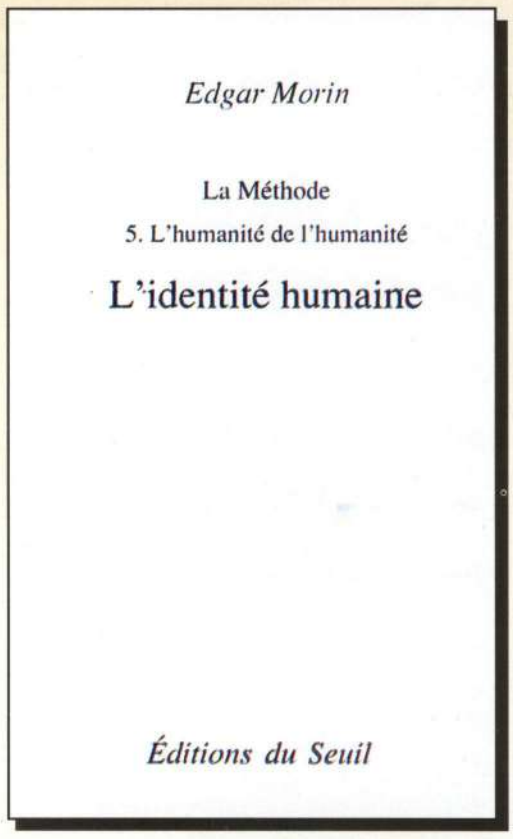

في معنى هوية الإنسان

ينطلق ادغار موران في تحديده لمفهوم الهوية الإنسانية من ثلاثة عناصر مترابطة ومتكاملة وهي: الفرد والمجتمع والنوع، بحيث يفيد الفرد كل إنسان، أو كل واحد منا، وهو جزء من نوع ومن مجتمع. فنحن في المجتمع والمجتمع فينا من خلال اللغة والمعايير والأفكار والإيديولوجيات، وبقدرتنا على التكاثر، فإننا نضمن بقاء النوع، من هنا فإن هذه الثلاثية تشكل كلاً واحداً ومتعدداً في الوقت ذاته، وعلاقاتها علاقة متعدية وتتم بطريقة دائرية، بحيث إن الفرد يؤدي إلى المجتمع ومنه إلى النوع والعكس صحيح، كما أن كل عنصر يشكل سبباً لغيره، من هنا فإنه لا يمكن أبداً الفصل بين هذه المستويات الأساسية المشكّلة لهوية الإنسان.

وإذا كانت الهوية في تقدير العالم لا يمكن التفكير بها خارج ثلاثية الفرد والمجتمع والنوع، فإنه لا يمكن كذلك تعريفها خارج الوحدة والتنوع، وفي تقديره أن التعارض الأولي الذي نلاحظه بين الوحدة والتنوع أو التعدد، ناتج من كون أن هنالك من يؤكد دائماً على التنوع ومن يؤكد دائماً على الوحدة، وهذا التضارب في النظرة، قديم نقرأه على سبيل المثال عند (فولتير) و(هيردر)، والمشكلة في نظر العالم أنها تعود إلى طبيعة تفكيرنا التقليدي حول الوحدة والتنوع. ومن عيوب هذا التفكير هو الرغبة في الاختصار أو الاختزال بعد الفصل، ذلك أن هنالك على سبيل المثال تيارات تقوم باختزال النفسي والاجتماعي في البيولوجي أو العكس، من هنا فإن المشكلة الأساسية في الهوية تتعلق بطبيعة تفكيرنا وبطريقة تنظيم معارفنا، وفي تقديره أنه من المهم أن ننتبه من جديد إلى مفهوم الانبثاق (émergence) أي ظهور وقائع جديدة ضمن نظام معين، فهوية الإنسان - كما سبق وأشرنا إلى ذلك - تتكون من ثلاثية هي: النوع والفرد والمجتمع، وإن هذه العلاقة تتميز بكونها دائرية، ذلك أن المجتمع ينتج الأفراد وكذلك البيولوجيا تنتج الأفراد، والأفراد ينتجون المجتمع وهكذا... وأي مثال ندرسه، نجده يؤكد على الترابط بين الوحدة والتنوع، فالثقافة الواحدة على سبيل المثال، لا توجد إلا ضمن ثقافات أخرى، فليس هنالك ثقافة واحدة بالمطلق، وكذلك الدين لا يوجد دين واحد إلا ضمن الأديان، وكذلك الحال بالنسبة للموسيقى وغيرها من الأشكال الثقافية، من هنا فليس الإشكال في المفهوم، أو الصعوبة في التعريف، وإنما في نوع التربية والتعليم، فالإنسان ذاته موضوع الوحدة والتنوع، إنه هو هو ولكنه متنوع ومتعدد، فخلاياه تتجدد دائماً وتؤدي إلى تغيرات كل عشر سنوات أو خمس عشرة سنة، لذلك ينتقل الإنسان الواحد في مراحل عمرية مختلفة، ولكنه يبقى هو هو، وحتى عندما تفهم الهوية كذات، فإننا في هذه الحالة نلاحظ تزاوجاً

بين حركتين متضادتين ولكنهما متكاملتين ومتحدتين، الأولى هي حركة النفي حيث يعمل الإنسان على إلغاء كل من يحاول أن يحتل مكانه، ولكن في الوقت نفسه يعمل كل ما في وسعه لإحلال الآخر فيه، فهو يحب وينجب الأولاد ويحب وطنه أي كل ما يشكل آخره وغيره. وهذه هي وحدة الهوية التي لا تمنع من قيام التنوع، فعندما يكون الإنسان غاضباً على سبيل المثال فإنه ينفي عملياً أن يكون محباً، ولكن ذاته وهويته واحدة، وفي مجال علم النفس يمكن الحديث حتى عن شخصيات مختلفة لذات الشخص الواحد حسب الظروف والسياقات، ولكن بطبيعة الحال من دون السقوط في الحالات المرضية، لأن داخل كل ذات هنالك حضور متنوع للكثرة، ومن هنا يجب الإقرار بأن كنز الإنسان في تنوعه، وقوته في وحدته.

ولكن رغم ذلك، يجب الإقرار بالطابع المركّب لمختلف مناحي هوية الإنسان، لذا وجب قيام فحص شامل لها، لا يقتصر على جانب من الجوانب، وهو ما حاول القيام به في هذا الكتاب الشامل للعديد من المعطيات الانتربولوجية والتاريخية والفلكية والبيولوجية والنفسية والاجتماعية والفنية، لأن الإنسان كل لا يتجزأ، وإن عمليات التجزئة التي قامت بها مختلف العلوم لم تنتج إلا نظرة اختزالية أو إقصائية أو اختزالية وإقصائية في الوقت ذاته. ومن دون عملية فحص جديد لموضوع الهوية، فحص يستند إلى تعدد المعارف وترابطها وإلى نظرة إنسانية للإنسان، فإنه لا يمكن الخروج من مرحلة (العصر الحديدي) إلى (العصر الكوكبي planétaire)، كما يقول.

الغرب... ومسالمة العالم الإسلامي

يرى موران أن أحد الشروط الأساسية لقيام أي مجتمع كان، هو توفر شرط التواصل أو شبكة التواصل، وفي تقديره إن هذا العنصر قائم بفعل الوسائل المختلفة التي توفرها العولمة، وخاصة عولمة الاتصالات. كما أن هناك اقتصاداً عالمياً، ولكنه لا يخضع لرقابة المجتمع الكوكبي، كما أن هذا المجتمع يفتقر أيضاً إلى مؤسسات عالمية قادرة على التقرير والتأثير، وما يحول دون قيام مثل هذا المجتمع هو بدون شك غياب فكرة انتمائنا إلى وطن واحد، الانتماء إلى «الأرض - الوطن» الذي يعطينا الشعور بالأخوة.

ولأن أحد معالم طريقته ومنهجه في تحليل القضايا يستند إلى فلسفة اللغة وفقه اللغة، وخاصة الاشتقاق اللغوي، فإنه يحلل كلمة الوطن ضمن معطياتها الثقافية واللغوية، ففي الفرنسية نقول عن الوطن «Patrie»، وتفيد هذه الكلمة في أصلها اللاتيني الأمومة أو الوطن الأم، والأبوة أو السلطة والدولة، ولذا يرى - بلغة قريبة من لغة الفيلسوف والمعلم الثاني أبو نصر الفارابي - أن أفضل وطن هو المعمورة أو ما يسميه بالمجتمع - العالم.

وفي هذا السياق يرى أن المجتمعات الإسلامية تواجه تحديات خاصة، لذا على العالم الغربي أن «يسالم العالم الإسلامي» لأن في تقديره هنالك أسباباً عديدة «جعلت هذا العالم يعيش في تناقض حاد بين هوية منطوية ورغبة جامحة للحداثة، مع شعور بالقهر تحت نظم استبدادية وعلاقات دولية ظالمة، من هنا يظهر الماضي أكثر إشراقاً والحاضر أكثر بؤساً والمستقبل مظلماً، هذا بالإضافة إلى الصراع العربي - الإسرائيلي المحتدم الذي يؤجج هذا الوضع، ومع ذلك لا نجد أحداً يفكر في هذه الحالة الاستعجالية الخطيرة التي لا يمكن حلها بمنطق السياسات الحالية، وإنما المطلوب إقامة سياسة حضارية».

خاتمة وآفاق

يعد كتاب «هوية الإنسان» كما قلنا في المقدمة، بمثابة دعوة ونداء إلى بعث نهضة إنسانية جديدة، تقوم على فكر كوكبي إن صح التعبير، واع بالمصير المشترك للإنسانية. صحيح أن هنالك صُعوبات جمة لبناء هوية الإنسان في الظروف الحالية، رغم أننا نعرف الآن جميعاً أننا نملك جسماً واحداً مكوناً من جينات واحدة ولدينا بنية دماغية واحدة - طبعاً يجب الإشارة إلى أن هذا الخطاب موجه ضد أنصار النزعة العنصرية - وأن لدينا عواطف واحدة، بمعنى أن للإنسان قدرة جينية وعصبية ونفسية واحدة، تأخذ أشكالاً مختلفة، لكن ليس لنا وطن واحد، وبما أن مصيرنا اليوم أصبح مهدداً بأكثر من خطر ليس أقلها السلاح النووي والصراعات العرقية والقومية والأوبئة والمشاكل البيئية المختلفة، من هنا ليس هنالك من بد من قيام مواطنة كوكبية أو عالمية، وهي مواطنة بدأت تظهر معالمها الأولى في شكل منظمات عالمية، كمنظمة أطباء بلا حدود، ومنظمة العفو العالمي، ولكن الطريق لاتزال طويلة أمام هذه الهوية، ولعل أهم عنصر ينقصها هو وعيها بذاتها، ووعيها الجماعي باعتبارها هوية إنسانية.

لا تعني الهوية الإنسانية، هوية واحدة، لأن لكل فرد ولكل مجتمع هويته المركزية، فلكل واحد منا ذاته الخاصة وعائلته وقريته ومدينته ووطنه. لكن هذا لا يمنع من قيام مواطنة عالمية، فالفرنسي على سبيل المثال يستطيع أن يكون أوروبياً وهو ما يحصل الآن عملياً، ويمكن كثيراً أن يصبح عالمياً أي مواطناً عالمياً.

لقد تعودنا فيما يرى الفيلسوف كثيراً على التفكير الأحادي والإقصائي في الوقت ذاته، في حين أن الواقع والحياة تبين لنا دائماً أننا نجمع بين «هوية عميقة» خاصة وهوية كلية أو عامة تكون أكثر اتساعاً ورحابة، ننضوي فيها. لذا لا يتردد في الدعوة إلى قيام هوية أوروبية ومن ثمة هوية عالمية، وفي حالة تشكل وقيام مثل هذا المجتمع العالمي، فإن هوية الإنسان بوصفها إنسانية الإنسانية، هي التي تشكل مستقبل الإنسان وبالتالي فهي أمله.

إلا أن هنالك من يحتج على هذا المنحى باسم الثقافة الوطنية و«الخصوصية التاريخية والأصالة»، وما إلى هنالك من ضروب الهويات المغلقة. وجواب الفيلسوف على ذلك هو أنه ليس هنالك من ثقافة خالصة أو هوية خالصة أو تاريخ خالص أو ذات خالصة. فالثقافات هي دائماً في حالة انفتاح وانغلاق. تكون الثقافات أو الهويات في حالات متفتحة عندما تكون قادرة على تمثل عناصر جديدة، ومنغلقة عندما تريد أن تحتفظ بأساسها أو ميزتها الخاصة، إلا أن الهويات في جميع الأحوال، تقوم بعملية الامتصاص والمزج الخاصة بها، ولم يحدث أن بقيت هوية واحدة خالصة، فكل الهويات هي نتاج لعمليات مزج وتركيب شديدة التعقيد والتنوع، وتلجأ دائماً إلى إظهار خصوصيتها وعلاماتها الأصيلة سواء في حالة الانغلاق أو الانفتاح.

• لم يعد أمام الحضارة الصناعية المعولمة سوى مصيرين: التقهقر والانحطاط... أو التجديد بالأنسنة والتخلص من الجوانب الهدامة فيها.

• هوية الإنسان قائمة على التنوع داخل الوحدة... فلا ثقافة واحدة أو دين واحد إلا ضمن ثقافات أخرى وأديان أخرى.

• على الغرب مسالمة العالم الإسلامي... والأزمة الحالية لا يمكن حلها بمنطق السياسات المتبعة بل بإقامة «سياسة حضارية».

لماذا تصدعت حتى لتبدو وكأنها في مهب الريح؟

الهوية القومية بين مطرقة الخارج... وسندان الداخل

د. عبدالله الجسمي

● سؤال الهوية يبرز سلباً أو إيجاباً بفعل التغيرات الاجتماعية والفكرية... ويتعلق بشكل العلاقة بـ «الآخر».

● حركة التنوير الثقافي بلورت حركة القومية العربية التي طالبت بالاستقلال عن الدولة العثمانية ومواجهة النفوذ الغربي.

مع نهاية القرن الماضي أخذ سؤال الهوية أو الحديث عن الهوية منحى جديداً وأخذ ينال اهتماماً عريضاً أكثر من ذي قبل خصوصاً في مجتمعات العالم الثالث التي تشهد تغيرات وتحولات متسارعة في العديد من المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. فهناك تخوف كبير عند العديد من مفكري وشعوب العالم الثالث من ابتلاع ثقافة العولمة لهوياتهم وتراثهم الثقافي بإحلال ثقافة خارجية بديلة لا تمت لشعوبهم بأية صلة، ولاشك أن هذا الخوف يساور قطاعاً كبيراً من أبناء الشعب العربي ومثقفيه خصوصاً في ظل الأحداث التي تشهدها المنطقة العربية وما يستتبع ذلك من مؤثرات فكرية وثقافية، سيكون لها عميق الأثر على الهوية العربية بشكل عام.

هذه المقالة محاولة لإضاءة الأسباب التي دفعت الاهتمام بموضوع الهوية إلى الأمام لدى العديد من أبناء الشعب العربي في الآونة الأخيرة، فانبرى نفر من الكتاب والمثقفين العرب للكتابة عن هذا الموضوع بل وجعله البعض منهم شغله الشاغل خصوصاً في ظل الثورة المعلوماتية والتحول التدريجي نحو العولمة كأمر واقع مع التركيز على أن المسألة لا تتعلق بهذين الأمرين فقط بل هناك عوامل عدة يغفلها الكثيرون وتتعلق بالواقع والإنسان والمثقف العربي، وهي عوامل ساهمت في تفاقم الأوضاع الثقافية التي دخلت أزمة حادة كان مفهوم الهوية أحد مظاهرها أي يجب الخروج من قمقم إلقاء اللائمة على الآخرين فقط وتحميلهم وزر المؤثرات على الهوية سواء أكانت سياسية أو ثقافية أو تكنولوجية ونسيان أنفسنا ودورنا في هذه الأزمة التي أخذت بالفعل تعصف بالهوية العربية، حتى لتبدو اليوم وكأنها في مهب الريح!

الانتماء القومي وصيانة الهوية

لم يكن سؤال الهوية يشكل قضية من القضايا الملحة سابقاً في الوطن العربي على وجه الخصوص لأسباب عدة أبرزها أن واقع الحياة وإيقاعها كان بسيطاً ولم تكن هناك مؤثرات ثقافية خارجية عميقة مثلما هي موجودة في عالم اليوم. فالمجتمعات العربية في شتى أنحاء الوطن العربي كانت في معظمها إما ريفية أو قبلية، والقليل منها كان يعيش حياة مدنية، وفي ظل هذه الأوضاع كان للتكاتف والتلاحم والروابط الاجتماعية حضور قوي لم يعط مجالاً لأية مؤثرات خارجية تذكر في التأثير عليه. وكان الدين الإسلامي بشكل عام عاملاً فاعلاً في تكوين هوية الشعب العربي علاوة على التراث العربي الذي حافظ إلى حد كبير جداً على قيمه وعاداته وتقاليده حتى وقت قريب.

وخلاصة القول إنه نتيجة لبساطة المجتمعات العربية وبساطة واقعها الاقتصادي ومناشط حياتها اليومية وعزلة الكثير منها عن المؤثرات الخارجية، لم يكن سؤال الهوية ملحاً أو ذا أهمية تذكر، ومع التحولات التي حدثت في المجتمع العربي والتطورات العالمية التي حدثت في القرنين التاسع عشر والعشرين بدأ سؤال الهوية يبرز أكثر فأكثر، وتجلى ذلك في تنامي قوة الحركة القومية السياسية من جهة والدور الذي لعبه عدد من المثقفين العرب من رواد حركة التنوير والنهوض الثقافي من جهة أخرى، في شتى أنحاء الوطن العربي.

فكما هو معروف ولدت الحركة القومية العربية وحركة التنوير الثقافية لمواجهة الدولة العثمانية، حيث طالبت الحركة بالاستقلال عن العثمانيين وبناء دولة عربية موحدة ومستقلة تشمل جميع أراضي الوطن العربي، كما واجهت هذه الحركة النفوذ الغربي الذي كرسته اتفاقية سايكس - بيكو «انتداباً» شمل جميع أنحاء الوطن العربي.

ومنذ نشأت تلك الحركة ازداد الاهتمام السياسي والثقافي بطرح أفكار الوحدة العربية وشكل أنظمة الحكم وطرح الهوية العربية كوعاء ثقافي وفكري، يحافظ على الروح والقيم العربية الأصيلة، ويعطي الأولوية للشعب العربي وبناء حياته ومستقبله بعيداً عن أي شكل من أشكال الهيمنة.

ولاشك أن الأمر الذي أعطى حركة القومية العربية دفعة قوية هو الحركة الثقافية والفكرية التي تزامنت مع النهوض القومي العربي السياسي، فالحركة القومية العربية لم تكن حركة سياسية فقط بل كانت أيضاً ثقافية، لعب رموزها دوراً هاماً في تعزيز فكرة القومية العربية والتنظير لها، والأهم من ذلك هو التمازج والتوازن الذي نادوا به، ودعوا إلى تحقيقه عبر الاستفادة من أفكار الثقافات الأخرى، خصوصاً الغربية، من خلال تبني بعضها، وفي نفس الوقت الحفاظ على الخصوصية العربية والمتمثلة بقيم وهوية الشعب العربي وتراثه.

إذن، تعامل المثقفون والمفكرون العرب بإيجابية مع المؤثرات الخارجية القادمة من المجتمعات الأكثر تطوراً بروح نقدية ومنهجية عقلية، واستفادوا مما وجدوه يساعد على نهضة مجتمعاتهم وتقدمها، لكن مع الحفاظ على قيمهم وهويتهم ومكونهم الثقافي

العربي واستبعاد ما من شأنه أن يؤثر سلباً على هويتهم. فمن يتصفح الأدبيات والدوريات والكتب وغيرها سيجد كيف تعامل المثقف والمفكر العربي في تلك الفترة مع «الآخر» الحضاري، وكيف نجح في طرح نموذج أو نماذج مختلفة من المنظومات الفكرية والسياسية دون الانسلاخ عن عروبته وثقافته. وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى أمرين هامين، الأول: إن رؤية الإنسان والمثقف والسياسي العربي كانت واضحة، إذ كانت القومية العربية بما تحتويه من مبادئ وأهداف وقيم وثقافة هي مقصد السعي لتحقيق طموح كبير، يتمثل بالوحدة العربية، ذلك الحلم الذي ظل يقود الكثيرين من أبناء الأمة العربية لأكثر من قرن ويتملك وجدانهم ويعبر عن هويتهم الثقافية والروحية، مهما اختلف طرح ذلك الحلم لدى المفكرين والقوى السياسية ما بين الطرح العرقي القريب من العنصرية والطرح القومي الإنساني. وكانت النظرة القومية حافظة للذات العربية من أية مؤثرات مهما كان أمرها أو أثرها على حياة الإنسان العربي وتفكيره، أي كانت الوعاء الذي احتواه عقائدياً من أية مؤثرات فكرية عميقة. أما الأمر الثاني فيتلخص بموضوع الانتماء، فانتماء الإنسان العربي وولاؤه كان قوياً للأمة العربية لشعوره بأنه جزء من أمة، لها تراثها وتاريخها، وأن ذلك التراث والتاريخ بإيجابياته وسلبياته هو جزء حضاري يمكن الاتكاء إليه من أجل النهوض وتحقيق التقدم والوحدة.

وقد لعبت طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة دوراً هاماً في غرس هذا الانتماء، فقوة الروابط الاجتماعية للفرد في محيطه العائلي ومن ثم القبلي أو الشريحة الاجتماعية التي ينتمي لها أو البقعة الجغرافية عززت فكرة الانتماء الفردي للجماعة، وعبر ذلك عن نفسه بقوة الروح الجماعية التي كانت تسود المجتمعات العربية كافة آنذاك، كما عززت انتماء مجموعات كبيرة مع بعضها البعض سواء في القطر العربي الواحد أو الأقطار العربية المختلفة، وهذا ما حدث فعلاً عندما حاربت الشعوب العربية الاستعمار فكانت (الفزعة) لنجدة كل قطر عربي جماعية وشارك الجميع تقريباً بالوسائل التي يستطيعون المشاركة بها.

لقد استمر هذا الوضع على حاله إلى أن بدأت الشعوب العربية تتحرر من الاستعمار في شتى أقطار الوطن العربي، فجاءت حقبة جديدة بلغت فيها العديد من القوى والأحزاب العربية القومية سدة الحكم، وتمتد من نهاية الأربعينات وحتى الآن، ولكن يمكن أن تقسم هذه المرحلة إلى فترتين تنتهي الأولى بنكسة حزيران عام ١٩٦٧م والثانية تمتد من ذلك التاريخ وحتى اليوم.

النكسة ليست هزيمة عسكرية فقط

دخلت المنطقة العربية في آخر ثلاثة عقود من القرن العشرين مرحلة جديدة في طبيعة الفكري القومي، من حيث طبيعة القوى التي تقود الشارع وكذلك طبيعة الأنظمة العربية وأيضاً الحركة الثقافية فيها علاوة على التحولات المادية الاقتصادية، الأمر الذي كان له عميق الأثر على الإنسان العربي وطريقة تفكيره وهويته، ويمكن عرض النقاط السابقة على الشكل التالي:

أولاً: بالنسبة للأنظمة العربية التي رفعت شعارات القومية والحرية، والتي كانت حبراً على ورق، فقد لعبت دوراً في تشويه فكرة القومية كحركة ونظام سياسي نتيجة للممارسات القمعية التي أخذت تمارسها ضد شعوبها في الأقطار التي حكمتها. فالحلم الجميل الذي

كان يراود رواد الفكر القومي ومن تبعهم والإنسان العربي بشكل عام تبدد على أرض الواقع بعد أن وصل إلى سدة الحكم عدد من الأحزاب القومية العربية التي جاء معظمها عبر الانقلابات العسكرية، فشوه العسكر الفكر القومي وأعطوا نموذجاً سيئاً لإدارة الأقطار التي حكموها، مما نتج عن ذلك إعادة النظر لدى العديد من المهتمين بالشأن القومي من المفكرين والمثقفين وعامة الناس ليس بقدرة تلك الأنظمة على التعبير عن المشروع القومي فقط بل وبالأطروحات القومية عامة، ما دفع للبحث عن أطر فكرية أخرى.

ثانياً: لم تكن هزيمة الخامس من حزيران هزيمة عسكرية للجيوش العربية فقط، بل للمشروع القومي العربي كله، فإذا كانت نكبة العام ١٩٤٨م مبرراً للقوى القومية للقيام بالانقلابات والثورات على أنظمة الحكم السابقة، فإن هزيمة ١٩٦٧م كانت هزيمة ثقافية وفكرية وسياسية واقتصادية إلخ... إذ بدأت الأصوات تتعالى بإفلاس الطرح القومي العربي والعودة إلى الدين، فكل ما أصاب الأمة من انتكاسات كان سببه الابتعاد عن الدين، وهو ما اتضح لاحقاً أنه دعوة سياسية لا عقائدية.

ثالثاً: كان لدعوات «العودة إلى الدين» أن أفرزت تدريجياً الحركات الأصولية الدينية في معظم أقطار الوطن العربي واستطاعت في فترة وجيزة أن تكتسح الشارع العربي وتتغلغل بين المواطنين وتبني مؤسساتها الخاصة.

وكان لانتشار أطروحاتها أثر مباشر في تراجع الأطروحات القومية، ما أثر تالياً على مفهوم الهوية العربية.

رابعاً: لم يقتصر الأمر على الحركات الأصولية وتأثيرها على الهوية العربية ومحاربتها للأفكار القومية، بل كان للحركات اليسارية العربية أيضاً دورها في هذا الموضوع. فتبني القوى اليسارية لفكرة الأممية والسعي إلى دعوة عالمية قائمة على الإيديولوجية الاشتراكية العلمية، جاء بآثار سلبية على الأطروحات القومية ومن ثم على الهوية العربية. فالفكر الاشتراكي العلمي شمولي الطابع ويحتوي على منظومة من الأفكار والقيم الاجتماعية والسياسية، الكثير منها لا يعبر عن الواقع العربي وثقافته، وكأي مذهب إيديولوجي له ثقافته الخاصة، فإنه سيؤثر على هوية الفرد الذي يتبناه، هكذا عاش الكثير من أتباع هذاالفكر حالة اغتراب مع واقعهم لأنهم يفكرون بطريقة مختلفة عن الأفكار السائدة في مجتمعهم الذي تسوده الثقافة العربية.

خامساً: كان لوصول الأحزاب القومية للسلطة أن

• طرحت الهوية العربية كوعاء ثقافي وفكري يحافظ على الروح والقيم العربية الأصيلة... ولتحقيق وحدة العرب على أرضهم.

• نكسة حزيران لم تكن هزيمة عسكرية فقط، بل فشلاً للقوى القومية وتراجعاً لأطروحاتها.

• تجربة الأحزاب القومية في الحكم أحبطت الشعوب العربية وأفسحت لشعار «العودة إلى الدين».

• لابد من إحياء الهوية القومية لمواجهة مؤثرات العصر العاصفة باستبعاد السلبيات والانفتاح الفاعل على الثقافة الإنسانية.

مارست قمعاً سياسياً وثقافياً وفكرياً، فأخذت بالتدريج بضرب الحركة الثقافية التنويرية العربية واعتقال العديد من المفكرين والرموز الثقافية وإيداعهم السجون نتيجة لمعارضتهم للسياسات القمعية لتلك الأنظمة، فنتج عن ذلك محاربة لهؤلاء المفكرين وأطروحاتهم التنويرية الداعية إلى الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وإعلاء من قيمة العلم والعقل، فغاب عن الساحة الفكرية المثقفون والمفكرون الذين كانوا يقودون الشارع العربي ويعملون على حمايته ثقافياً وفكرياً وحماية هويته العربية من الضياع في خضم الأحداث المتسارعة التي تحدث في العالم والمنطقة العربية. ولم يقف الأمر عند قضية التسلط والقمع من قبل هذه الأحزاب الحاكمة بل تجاوزه إلى إذكاء روح الصراعات القطرية، وكان ذروة ذلك ما قام به نظام صدام من غزو هجمي للكويت وخلق حالة انشقاق بين أبناء الشعب العربي مما دفع الكثيرين لرفض الأطروحات القومية التي تمثلها هذه القوى والبحث عن بدائل وأفكار أخرى لها أبعادها الثقافية خصوصاً النماذج الغربية التي أصبحت تمثل بديلاً ثقافياً وفكرياً لدى العديدين بسبب ممارسات الأحزاب القومية سواء كانت في السلطة أو لم تكن. ونعتقد أن مثل هذه الحالة حتى وإن كانت نوعاً من رد الفعل، فإنها لاشك ستترك أثراً على هوية المجتمع، سواء أكانت تلك الحالة مؤقتة... أم دائمة.

سادساً: أحدثت التحولات الاقتصادية في المنطقة العربية تغيرات بنيوية في طبيعة الاقتصاد الرعوي أو الريفي الذي كان يسود المنطقة مما أحدث تغيراً ثقافياً بعد التخلي عن طرق الحياة القديمة وتحلل علاقاتها الاجتماعية، فلم يتم التعامل في أنحاء كثيرة منه بطريقة ثقافية وفكرية تحافظ على روح الهوية العربية التي كانت متضمنة في طريقة حياة وثقافة المجتمعات السابقة. وقد كان لذلك عميق الأثر على الهوية العربية لأن التطورات المادية التي حدثت جلب معظمها من الغرب، وأدى ذلك إلى جلب أنماط ثقافية معها من حيث أساليب العمل والممارسة الحياتية اليومية ومنظومة العلاقات والقيم المختلفة عن تلك التي كانت سائدة في الحياة العربية.

التكنولوجيا والحصاد الثقافي

مخطئ من يعتقد أن وسائل الاتصالات وتطورها التكنولوجي الذي أصبح علامة بارزة في العقدين الأخيرين والمادة الثقافية التي تحتويها هو المسؤول الأوحد عن التأثير في هوية الشعب العربي بأقطاره المختلفة، فالتأثيرات التي يأتي بها اللاقط الهوائي وشبكة الإنترنت ومؤخراً تكنولوجيا الهواتف المحمولة المتطورة هي حصاد لما تم ذكره من تراجعات للأطروحات القومية وظهور القوى ذات الدعوة العالمية أو الأممية، سواء أكانت إسلامية أم يسارية أو غيرها، مثلما نراه اليوم من بعض الأطروحات التي تنادي بثقافة عالمية أو عولمة ثقافة القطب المسيطر على العالم بشتى مظاهره الاستهلاكية والفكرية.

فما يحدث على أرض الواقع الآن من انجذاب لجيل الشباب للمظاهر المختلفة للثقافة الغربية هو نتيجة لغياب الأطروحات الثقافية القومية التي يمكن من خلالها الحفاظ على الهوية العربية أو المعالم الرئيسية لهذه الهوية لمختلف فئات الشعب في شتى تجمعاته الإقليمية. فالنتيجة التي يمكن استخلاصها في هذه المقالة هي أن الأطروحات العالمية أو الأممية سواء أكانت على شكل عقائدي أو أيديولوجي أو ثقافي استهلاكي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحافظ على هوية شعب من الشعوب، بل ستؤدي إلى خلق ثقافة ومحاولة خلق هوية عالمية واحدة لكل شعوب الأرض، وهذا الأمر إن لم يكن ضرباً من المستحيل فهو من الصعب جداً تحقيقه على أرض الواقع.

فالحفاظ على هوية أي شعب لا يمكن أن يتحقق دون وجود وعاء قومي يحفظ له هويته وتراثه ومظاهر إبداعاته الفنية والأدبية، ويمكن من خلاله أن يطور ذلك التراث والثقافة في ظل المتغيرات والتطورات التي تحدث في عالم اليوم، فلو تصورنا وجود ثقافة أو هوية كونية واحدة، فسيغيب عنها الكثير من المظاهر التي نراها سائدة بين ثقافات وشعوب العالم، ومن ذلك النظرة للآخر والاختلاف الثقافي والفكري بين الشعوب والاختلاف في العادات والتقاليد والقيم والممارسات الأخلاقية وغيرها، وهذا الأمر لا يمكن تحقيقه لأن ذلك سيعني غياب ثقافات وإبداعات فنية ومعتقدات على قدر كبير من الأهمية لشعوب عديدة من شعوب العالم.

وخلاصة القول: إن الوقوف الحقيقي في وجه المؤثرات الثقافية التي نراها في عالم اليوم لا يمكن أن يتم إلا من خلال إحياء الفكر القومي والثقافة العربية بمظاهرها الإنسانية واستبعاد المظاهر والممارسات السلبية منها، وأن تكون الحرية جوهراً حقيقياً لذلك الفكر، بمعنى رفضه لأي شكل من أشكال الديكتاتورية والقمع والتسلط والعنصرية، وذلك بجعل اللغة إطاراً موحداً لكافة فئات الشعب العربي مع التأكيد على احترام كافة الأقوام والشعوب الأخرى، والنقد الموضوعي لتجارب حكم الأحزاب التي اتخذت من الشعارات القومية ستاراً لممارساتها الجسيمة في السلطة. ومن جانب آخر، فإنه من الضروري أن ينفتح الفكر القومي العربي الذي ندعو وتدعو الضرورة الموضوعية إلى إحيائه على المشرق والتحرري والإنساني من الفكر العالمي ويتفاعل مع الجوانب الإيجابية من المؤثرات الثقافية الخارجية، والتجارب المادية للتطور التقني الذي يصب في النهاية في مصلحة الشعب العربي.

ويمكن أن يكون أحد المداخل لكل هذه الآمال إحياء وتطوير حركة التنوير العقلية العربية التي تعاملت مع التراث والثقافة الغربية، فحافظت على الروح والهوية العربية ونظرت للواقع بطريقة عصرية، فحققت أيام انتشارها أفضل نهضة فكرية وثقافية وفنية وأدبية وإبداعية عرفتها الأمة العربية في العصر الحديث.

ذكي القلب واللسان .. في رحاب الله

عبدالحميد البسيوني .. أضاءت له الكويت فقدح لها وفاء وعلماً

منصف حمزة

● رفض مغادرة الكويت في محنة الاحتلال قائلاً: مادمت معهم فأنا معهم قدراً ومصيراً .. حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

الكويتية

لئن كانت النجوم تنطفئ في السماء فإن بريقها يستمر مرئياً، بعد انطفائها لزمن طويل، حتى يتخيل للمرء أنها مازالت باقية مشعة، تبعث الضياء.

هكذا هو حال رجالات العلم والمعرفة والصلاح، يغادرون الحياة الدنيا، لكن ما يخلفونه من آثار مادية ومعنوية، يظل منارات هدى، وشعل نور، ترشد الخلف في دروب الحياة إلى سواء السبيل، وتعمر نفوسهم بالقيم الفضلى، وتحفظ لهم المعارف ومكارم الأخلاق.

والأستاذ عبدالحميد البسيوني - رحمه الله - واحد من هؤلاء الرجالات، وهو وإن كان قد رحل عن عالمنا، فإن ما تركه من علم وفضائل سيظل نبراساً للأجيال الجديدة، وذخيرة علمية لا غنى لهم عنها في مسيرة بناء الإنسان .. والأوطان.

وقد أصدر صديقه وزميله الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم كتيباً يفوح بسيرة الراحل بعنوان« في رحاب الله .. عبدالحميد البسيوني .. ذكي القلب واللسان» تأبيناً له ووفاء لجهوده في خدمة الكويت .. والثقافة العربية الإسلامية عامة، نعرض إليه في هذه السطور.

قصد الأستاذ - المرحوم - عبدالحميد البسيوني الكويت في ريعان شبابه، وأفنى حياته في حبها وحب أهلها، فبادلته ذلك الحب، ما ملأ روحه الزكية بالوفاء والعرفان .. وقد ظل على عهده هذا إلى أن توفاه الله.

وكان هذا العلم الذي سيكون له شأن كبير في مجالس الأدب والعلم وكواليس الإعلام والسياسه قد ولد عام ١٣٥٥ هجرية، الموافق للعام ١٩٣٦ ميلادية في قرية «كفر الباجور» من قضاء المنوفية في مصر الشقيقة وتخرج في كلية دار العلوم عام ١٩٦١م، وعرف عنه، كما يذكر الذين عرفوه عن كثب أو عملوا معه - ومنهم الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم «سعة الاطلاع والدأب على البحث والشغف بتقديم الجديد من الفكر والأدب إلى محبيه. كما كانت لقاءاته وجلساته لا تمل، يكون فيها دائماً على سجيته، في تواضع العلماء وسماحة الظرفاء. ومن يلقاه مرة لا ينسى أبداً شخصيته التي جمعت في تكوينها العلمي بين الأصالة والمعاصرة، وما جبلت عليه أخلاقه من الوضوح والصراحة وعلو الهمة».

وقد ذكر لي الأستاذ فاضل خلف أنه تعرف بالعلامة الأستاذ عبدالحميد البسيوني - رحمه الله - عام ١٩٧٠ في أحد المجالس الثقافية، أي بعد مجيء الأستاذ البسيوني إلى الكويت بسنتين، وكان في المجلس الشاعر محمود حسن اسماعيل ومحمد خليفة التونسي.

ومنذ ذلك الوقت التقاه في مجالس كثيرة، كان فيها، على الدوام، علماً بارزاً بمعارفه الثرة وتواضعه الجم، يفصل في أدق القضايا اللغوية والفقهية والفلسفية عندما يستلزم الأمر ذلك، وبكثير من البساطة والتكثيف والروية، فيقنع بما يفصل به، ويبل.

ومنذ نشأته دفعته نفسه المشوقة وحسه المرهف وعينه الناقدة - كما يضيف د. عبدالله الغنيم -

إلى مصاحبة كبار الأشياخ والعلماء ومنهم الأستاذ عباس محمود العقاد، أحمد الصقر، محمود محمد شاكر، كما صحب من قراء القرآن الشيخين: محمد صديق المنشاوي، وعلي حزين.

ويقول:« كان ذكياً منفتحاً في شبابه، على صلة بالمنتديات العلمية والأدبية لكبار الأدباء والعلماء من أمثال المغفور لهما عباس محمود العقاد أحد أقطاب الأدب والفكر والشعر والسياسة في مصر خلال فترة تربعها على عرش الثقافة العربية، وقد صاحبه المرحوم سنوات عديدة، وتركت فيه تلك الصحبة أثراً كبيراً، حتى إذا ما توفي العقاد انتقل إلى رحاب العلامة الأديب والمحقق الشيخ محمود محمد شاكر، الذي كان مجلسه في منزله قبلة الأدباء والمثقفين من مصر والعالم العربي».

ولم يكن الأستاذ المرحوم البسيوني ظلاً لأي ممن صحب، فقد كان ذلك «الشاب المثقف الذي يسمع ويقرأ ويحلل ويوازن ويناقش ويبدع، ولا يرى بأساً في أن يعرض في مجلس صاحبه ما يرى الجهر به صواباً وحقاً، إيماناً منه بأنه طالب معرفة وحقيقة، لا يثنيه عن ذلك رأي مخالف لها».

ونهل المرحوم في حياته من مناهل عظيمة متعددة، وأثبت جدارة وعلماً في كل عمل كان يوكل إليه، وهو الذي كان قد «عمل أولاً بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة، في ذروة نشاطه أيام الستينات من القرن الماضي، وكان المجلس يضم خيرة علماء مصر وفقهائها، وقد ظل على رأس عمله نحو ثماني سنوات، أشرف خلالها على إصدارات لجنة إحياء التراث (...) وأثناء ذلك نشر مجموعة من البحوث في مجال الدراسات الإسلامية، منها مجموعة من البحوث الفقهية في موسوعة جمال عبدالناصر للفقه الإسلامي وكتاب عن برّ القرآن الكريم وكثير من المقالات والدراسات».

وفي أواخر عام ١٩٦٨ قدم للعمل في الكويت بدعوة من الدكتور يعقوب الغنيم وكيل وزارة التربية آنذاك «للاستعانة بعلمه وثقافته الواسعة في إعداد مناهج اللغة العربية والتربية الإسلامية، وقد عمل بجانب هذه المهام في التدريس تارة وفي مركز بحوث المناهج تارة أخرى، وقد شارك في تلك الفترة في تأليف أكثر من عشرة كتب مدرسية في العربية والتربية الإسلامية والتاريخ بالتعاون مع المرحوم د. حسين مؤنس».

وانخرط الراحل - خلال تلك الفترة - بالإضافة إلى عمله في الحياة الثقافية والعلمية في الكويت، فكان يكتب المقالات ويلقي المحاضرات في المواسم الثقافية، واشتهر عنه عشقه للغة العربية وقواعدها، فكلف بتدريب المذيعين في إذاعة دولة الكويت على قواعد اللغة وإلقائها وفهم خصائصها لدورات عدة بوزارة الإعلام، كما عمل أيضاً بالتدريس في كل من جامعة الكويت، والمعهد العالي للفنون المسرحية، والمعهد العالي للفنون الموسيقية.

ولم يحل عمله الوظيفي المجهد والدقيق دونه والمجتمع، فكان حضوره الحي دائماً في ديوانيات الكويتيين «الذين اشتهر بينهم فأحبوه، وأقبلوا عليه يسألونه في شؤون الشعر والأدب والفقه، فكان لا يبخل بعلمه الغزير على طلاب العلم، ويقدم الشروح والأدلة، التي تريح السائل، وتدخل في نفسه الاطمئنان».

ويذكر د. عبدالله يوسف الغنيم أنه استعان بالمرحوم الأستاذ البسيوني عندما كلف بإنشاء قسم التراث العربي في المجلس الوطني للثقافة وقدما معاً مجموعة من كتب التراث العلمي العربي «وقد راجع الأستاذ عبدالحميد كل ما نشر عن ذلك القسم، وهو ما يزيد عن عشرين كتاباً بدقة وعناية، جعلت لإصدارات القسم، في ذلك الوقت صيتاً طيباً في أوساط العاملين في التراث العربي».

وكان موقف الوفاء الأكبر عندما رفض الراحل - رحمه الله - أن يفك عرى المصير مع أحبائه وأصدقائه أثناء الغزو العراقي الغاشم.

ويلفت د. الغنيم إلى هذا الموقف بكثير من

• حيثما عمل ترك أثراً طيباً .. وسمو الأمير عزى به أستاذاً كبيراً قدم خدمات جليلة متميزة للكويت .. بتواضع وإخلاص.

الإعـزاز، فـيـقـول: «أبت نفـسـه الـكريمة أن يغـادر الكويت أيام محنتها، رغم قدرته على ذلك، وأصر علي البقـاء مع أحبائه وأصدقائه قائلاً: ما دمت معهم فأنا معهم قدراً ومصيراً، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً».

وعن تلك الفـتـرة يذكـر د. يعـقـوب الغنيم في تقديمه للقصيدة/ الديوان التي رثا بها الأستاذ البسيوني والد الدكتور يعقوب ما يلي: «لقد عاش الأخ عبدالحميد البسيوني معنا فترة الاحتلال بكاملها، وعانى كما عانينا، ووجد في الغزو عملاً رهيباً لا يصدق توقعه حتى يصدق وقوعه، وعبر عن كل ذلك تعبيراً صادقاً دالاً على عظم المعاناة، وشدة الأزمة التي عاشها الشاعر، فكان بهذه القصيدة شاهداً على كل ذلك، معبراً عن المشاعر الصادقة والإحساس العميق بما خلفته الكارثة في النفوس».

وبعد انجلاء غمة الاحتلال اختير المرحوم عام ١٩٩١ للعمل بإدارة مكتب صاحب السمو أمير البلاد بالديوان الأميري «وترك في أثناء ذلك، حتى وفاته، أثراً طيباً في نفس كل من اتصل به أو عمل معه، وتجلى ذلك واضحاً في تأثر جميع العاملين في الديوان لوفاته، وعلى رأسهم جاء تعاطف حضرة صاحب السمو الأمير، وسمو ولي العهد، وسمو رئيس مجلس الوزراء ومعالي وزير شؤون الديوان الأميري فأرسلوا إلى أسرته التعازي التي عبرت عن مكانة الفقيد في نفوسهم، وجاءت كلمات صاحب السمو مؤثرة معبرة عن تعازيه ومواساته بوفاة أستاذ كبير قدم خدمات جليلة متميزة للكويت بتواضع وإخلاص».

ولعل آخر ما شارك الفقيد في إنجازه من إصدارات هو «قاموس القرآن الكريم» الذي كان له فيه النصيب الأوفى بدءاً من رسم خطة التنفيذ وانتهاء بالعناية التامة بإصداراته تحريراً ومراجعة لغوية وفقهية مع نخبة من العلماء والباحثين، ومن آخر إصدارات هذا المشروع الثقافي الإسلامي الكبير (معجم ألفاظ الحضارة) الذي صدر عام ٢٠٠٢م، وهو يقع في خمسمائة وخمس وخمسين صفحة من القطع الكبير ويحتوي على ٢٢٥ مدخلاً، وقد لبى الفقيد نداء ربه، وهو يواصل جهده في إنجاز معجم الأخلاق والعبادات.

ونختم بهذه الأبيات من قصيدته «شاهد وشهيد» التي رثا بها المرحوم يوسف الغنيم:

هذي كتائب صدام التي زحفت
يا عم «يوسف» تغزوكم وتغزوني
وكان ماكان مما أنت تذكره
يا عم «يوسف» والذكرى تبكيني
وكم تساءلت: ليش؟ مسلمون هم
والآخرون لماذا «هم يعادوني»؟
يا عم يوسف قم فالديرة اغتسلت
من الغزاة ومن رجس الشياطين
قم للصلاة فبن جراح يخطبنا
بصادق الوعظ في جرسٍ بتحزين

سباق .. مع المرحوم عبدالحميد البسيوني

بقلم/ المستشار محمد عبدالرحمن حسن - الديوان الأميري

كان لقائي الأول معه في أوائل السبعينات، عندما صدمنا معاً بوفاة الأستاذ عبدالستار أحمد فراج، أثر أزمة قلبية فاجأت كل محبيه والمحيطين به، وكان الأستاذ فراج – رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، علماً من أعلام المهتمين بالتراث العربي، وتولى مهمة تحقيق الكثير من كتب التراث التي نشرتها وزارة الإعلام (الإرشاد والأنباء) طوال حقبتي الستينات والسبعينات من القرن الماضي.

وكان المرحوم الأستاذ عبدالحميد بسيوني وأنا، من أقرب المقربين من الأستاذ عبدالستار فراج، وتجمعنا معه صداقة قوية واهتمامات ثقافية مشتركة، وزمالة في العمل، وعندما علمنا بوفاته المفاجئة تسابقنا في الذهاب إلى منزله بمنطقة حولي، وسارع كل منا إلى القيام بالواجبات التي تفرضها علينا هذه الظروف .. ومنها ترتيب نقل الجثمان إلى مصر، والوقوف إلى جوار أولاده وزوجته في هذه المحنة، وشحن أمتعتهم .. وصرف مستحقاتهم، وغير ذلك من الإجراءات الرسمية والترتيبات الإدارية.

في هذه الظروف الصعبة تعرفت لأول مرة على الصديق عبدالحميد بسيوني، وتسابقنا معاً في القيام بالواجب تجاه صديقنا المشترك، وأعترف بأن الأستاذ عبدالحميد بسيوني كان أكثر مني عطاء وإيجابية، وتصرف بشهامة ابن الريف المصري الحريص على القيام بالواجب في المحن والأزمات. ومن خلال تعاوننا معاً في التخفيف عن أسرة المرحوم عبدالستار فراج نشأت بيننا صداقة قوية.

وتواصلت علاقتنا الحميمة، إلى أن أتيحت فرصة أخرى للسباق .. وكنا في صدر الشباب وحماسته .. وكانت الحلبة هذه المرة العمل الوظيفي، هو في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وأنا في وزارة الإعلام. وقد أسهم هو في إنشاء قسم للتراث العربي في المجلس. وتوليت أنا رئاسة قسم المطبوعات الإعلامية بالوزارة ثم مستشاراً إعلامياً بها. وكنا نلتقي دائماً – رغم مشاغلنا العديدة – في المناسبات الثقافية والندوات الأدبية ومعارض الكتب. وأشهد أنه سبقني في الاستزاده من هذه المناهل الثقافية، وكانت له مساهمات عديدة وبصمات لا ينكرها أحد. وعندما عدته منذ مدة في مستشفى العظام حيث كان يرقد للعلاج من كسر أصابه، التقيت في الغرفة التي كان يرقد بها – صابراً ومحتسباً – بالعديد من رجال الفكر والأدب الذين كانوا في زيارته للإطمئنان على صحته، وقد غبطته على هذه المكانة الأدبية التي تحققت له .. والتي سبقني إليها.

وبعد تحرير الكويت من العدوان، كان من نصيبي أن أترك العمل في وزارة الإعلام، وأتشرف بالعمل في الديوان الأميري، وكم كانت سعادتي عندما وجدت الصديق عبدالحميد بسيوني قد سبقني للعمل في الديوان، خلفاً للمرحوم الدكتور عبدالعزيز كامل الذي عمل في هذا الموقع لسنوات طويلة، مستشاراً بمكتب حضرة صاحب السمو أمير البلاد المفدى حفظه الله ورعاه، وعملت أنا في مكتب معالي الشيخ ناصر محمد الأحمد الصباح وزير شؤون الديوان الأميري. واستمرت الزمالة بيننا في الديوان الأميري أكثر من عشر سنوات، كانت حافلة بالمودة والمحبة والتعاون، وكنت لا أتحرج في سؤاله عن بعض الأمور الفقهية أو اللغوية فأجد لديه الإجابة الوافية، والعلم الواسع، والثقافة العميقة والفهم الصحيح للدين.

وتجاوزنا معاً سن الخامسة والستين من عمرينا .. وانشغلنا بعض الشيء في مواجهة الأعباء الصحية لهذه السن .. وسعدت كثيراً عندما تجاوز محنة الكسر في الحوض التي كان قد تعرض لها في الأشهر الأخيرة، وتخلى عن العجلة التي كان يتكئ عليها في مشيته وواصل عطاءه المعهود وصلاته الحميمة مع الجميع.

ويشاء القدر أن نسافر إلى القاهرة مؤخراً لبعض الأمور العائلية العاجلة .. وذهبت إليه في منزله بمدينة نصر لزيارته فلم يقابلني ببشاشته المعهودة وأصالته الريفية المعتادة .. فقد سبقني إلى مغادرة هذه الدنيا .. وأحسب أنه في جنة الخلد بإذن الله.

د. رضوان السيد:
أمتنا أصبحت أشد حرصا على هويتها من

حاوره: عبدالله بدران

اعتبر المفكر والاكاديمي اللبناني الدكتور رضوان السيد أن التطورات الجارية في المنطقة العربية لاتمثل خطرا كبيرا على هوية الأمة وانتمائها الثقافي لكون الأمة العربية أصبحت أشد حرصا على ثقافتها وهويتها مما كانت عليه سابقا.

قال الدكتور السيد في لقاء مع مجلة (الهوية) عن الهوية العربية وسبل تعزيزها ودورها في الحفاظ على قيم الأمة إن الخطر الماثل الآن على بلداننا هو من الناحية السياسية والاقتصادية، ويتمثل ذلك في الاستعمار والاستتباع والهيمنة الاقتصادية والتعملق الاسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة وفي المنطقة.

وذكر ان من المشكلات البارزة التي تعانيها الأمة العربية حاليا مشكلة الحرية والاستقلال والتقدم إضافة إلى مشكلة إقامة الدولة القادرة على إدارة أمورها بما يخدم قضاياها ويحقق تطلعاتها ويلبي متطلباتها.

وهذا نص اللقاء:

• لا أرى في ما يحدث حولنا خطرا على دين الأمة وهويتها وانتمائها الثقافي

• تعصف بالعالم والمنطقة متغيرات سياسية وعسكرية وثقافية، بلغت ذروتها في العقد الأخير، هل ترون خطراً داهما على هوية الأمة وانتمائها الثقافي؟

– لاأرى في التطورات الجارية خطرا على دين الأمة وهويتها وانتمائها الثقافي .وكذا الأمر في مجال الثقافة العربية والإسلامية، فنحن اليوم أشد حرصا على ثقافتنا منا قبل عقود .ما عادت مقولة ابن خلدون حول تقليد المغلوب للغالب صحيحة، فنحن نحاول أن نخالف الغالب في كل شيء حتى الأمور التي لاتبدو مضرة.

إن الخطر الماثل الآن على بلداننا من الناحية السياسية والاقتصادية، من الاستعمار، ومن الهيمنة الاقتصادية، والاستتباع، ومن التعملق الصهيوني على أرض فلسطين وفي المنطقة .وفي الوقت نفسه تعرض علينا بعض الدول منطقة للتبادل الحر. إنما ماذا نتبادل مع أي دولة كبيرة ومتقدمة إذا لم نكن أحرارا، وإذا لم نكن ننتج شيئا؟ !صحيح أنهم يستوردون منا النفط، لكنه في الواقع تحت سيطرتهم، وبقية السلع حتى الضروري الذي كنا ننتجه نحن الآن نستورده منهم ولهذا فأوضاعنا سيئة :استتباع سياسي، وتخلف اقتصادي .وتجيب أمتنا على ذلك بأشكال مختلفة من المقاومة المسلحة وغير المسلحة .ومن ضمن الإجابات البارزة عن هذه التحديات هذا التشبث بالهوية وبالانتماء الديني والثقافي ولهذا فأنا أرى أننا نتعرض لتهديد شديد.لكنه ليس دينيا، بل يتناول قدرتنا على تحقيق الحرية والوحدة والتقدم.

ولا يعني ذلك أن ديننا لا يتعرض لتحديات .فكل مظاهر التدين بعد ١١ / سبتمبر/ ٢٠٠١ توصف بأنها إرهاب .لكنها تحديات لاتنال من إيماننا بديننا وأمتنا .ولهذا تبقى المشكلة البارزة، مشكلة الحرية، ومشكلة الاستقلال، ومشكلة التقدم ومشكلة إقامة الدولة القادرة على إدارة أمورنا بما يخدم القضايا السالفة الذكر.

• تتسارع وتيرة العولمة بكل النواحي، كيف يمكن

قبل... وديننا لا يضعف تحت الضغوط

التوفيق بين الخصوصية الذاتية والعالمية غربية الطابع؟

– ليست العولمة جديدة، بل هي مرحلة أخرى من مراحل التطور الرأسمالي .لكن الدول الكبرى هي التي تتردد في تركها تنطلق، وليس نحن الذين نكتفي بشتمها دون أن نعرفها أو نفهمها .في وعينا أن العولمة تعني الهيمنة الأمريكية بالذات، لكنهم يقولون إن العولمة هي سهولة انتقال الأموال والسلع والأشخاص .وفي حين ما عادت هناك قيود على انتقال الرساميل، هناك قيود على السلع، وقيود أكبر على الأشخاص .فلو أن العولمة تحققت في هذه المجالات، لأمكن أن تكون فرصة لنا ولسائر شعوب العالم الثالث أو ما كان يعرف بذلك .ولذا فأنا أرى أن هذه الجوانب من العولمة هي لصالحنا، وعلينا أن نسعى لتحقيقها أو السير باتجاهها..

أما الجوانب الثقافية من العولمة، أو ما يقال عن تهديدها للخصوصيات الدينية والثقافية من خلال أنماط الحياة الغربية، فهناك نوع من التلاؤم من ناحيتنا في جوانب معينة، ونفور وتشبث بالهوية والخصوصية في نواح أخرى .وأنا حائر من هذه الناحية، أي في قضية الخصوصية بالذات. فالإسلام دين عالمي، وهناك تدافع بين الثقافات والحضارات والأديان، كما يعبر عن ذلك القرآن الكريم، فهل نمشي في المشروع الإسلامي العالمي، ونحاول أن نكون أندادا، أم نتقوقع وننعزل من أجل الحفاظ على هويتنا وخصوصيتنا؟ ربما كانت الهوية الباقية هي المنفتحة والمتجددة والقادرة على المنافسة والصراع.

• هل نحن أمام مرحلة جديدة من ذوبان الفوارق بين المجتمعات والحضارات والثقافات أم مرحلة تأجج للفروق تحت ضغط التحديات؟

– ما نشهده في العالم اليوم هو ثوران لكل الثقافات والحضارات والانتماءات والخصوصيات. ربما تحت وطأة المتغيرات العاصفة، والخوف على تلك الخصوصيات .إنما الصحوة الإسلامية في ديار الإسلام دليل على أن ثقافتنا ليست في وارد الذوبان أو الانكسار، كما سبق وقلت .وأنا أرى أن الانفتاح يعمق انتماءنا ولا يضعفه.

• ماهو المطلوب من الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة كي تكون على مستوى التحدي؟

– ليست الثقافة كائنا قائما بذاته، بل هي خصائص وسمات ووجوه ووعي وممارسة شعب أو أمة.

ولهذا بقدر ما نكون نحن على مستوى التحدي في الاقتصاد والسياسة والتنظيم الدولتي، تبرز ثقافتنا. أما الدين فأنا أرى أنه لايتعرض للضعف تحت الضغط، بل تتغير الأشكال والممارسة، ثم تعود للبروز والتحدي، كما حدث لدى الشعوب الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز والصين على سبيل المثال.

إن علينا أن نتخلص من الاحتلال والاستعمار والتبعية بالمقاومة وبالتقدم الاقتصادي والسياسي وإذا نجحنا في ذلك تنجح ثقافتنا، ويعاد إليها الاعتبار.

• هناك حديث متداول عن المناهج الحديثة في قراءة النص، وفهم العلاقات بين المتقدم والمتأخر من النصوص والمقولات، وثمة آراء متباينة حول ذلك، فما الذي تراه بهذا الشأن؟

– لاشك في أن هذه المناهج تركت آثارا عميقة في الدراسات التاريخية،وفي الصور التاريخية، وفي مفاهيم الحقيقة والواقع، ولن تبقى الدراسات الإسلامية بمنأى عنها، في شتى الظروف والمناهج. وأرى أن الطريقة الأنجع للتصدي لكتابة تاريخنا العقدي، والثقافي (بالفهم والاستيعاب والتجاوز) تتمثل في المشاركة الفاعلة والقوية في الدراسات المعاصرة والمناهج المعاصرة دونما خوف أو وجل. ويقتضينا ذلك المزيد من المعرفة بالعالم والعصر، ووقائع الحداثة وما بعد الحداثة في العلوم الاجتماعية والإنسانية .فالواقع أن الدراسات الإسلامية والعربية في المغرب ماكانت على ما يرام في ظل (التاريخانية الاستشراقية)، لنزعم الآن أن غروب الاستشراق، بالمعنى القديم،نكسة لنا.

بيد أن هناك أمرا مهما يتعلق بما شخصه الباحث فوكو من علائق للمعرفة بالسلطة .فهناك صراع هائل منذ عقود على حاضرنا ومستقبلنا عربا ومسلمين، يبلغ الآن إحدى ذراه، وتستخدم فيه كل الوسائل،بمافي ذلك الإسلام والوعي به، والعروبة ومعناها الثقافي والسياسي .ومن هنا ينسحب الحاضر على الماضي، أو يسحب المهتمون والخائضون لهذا الصراع الحاضر على الماضي، فيبدو الإسلام الأول، بالصورة أو الصور التي يظهر

• الخطر الماثل على بلداننا الآن يتمثل في الاستعمار والهيمنة الاقتصادية والاستتباع والتعملق الصهيوني

•يعرضون علينا مناطق للتبادل الحر! ماذا نتبادل مع دولة كبيرة ومتقدمة إن لم نكن أحرارا وننتج شيئا؟

• ديننا لا يضعف تحت الضغوط... وعلينا التخلص من الاحتلال والاستعمار بالمقاومة والتقدم الاقتصادي

فيها الإسلام الحالي والعرب المعاصرون :الانقسام والضعف والشرذمة والتهافت على المقولات والمنظومات المتعددة والمتناقضة.ففي الحقبة بين ١٩٥٧ و١٩٦٧ ، حين بدا أن العرب قادرون على النهوض والنمو والتوحد، ظهرت إيجابيات في دراسة التاريخ الإسلامي، وفي بيان قدرة العرب والمسلمين على تجديد تقاليدهم، ودخول العالم المعاصر من بابه الواسع .وأذكر أن هاملتون غب وفون غرينباوم وفرتز شتيبات، هؤلاء جميعا(بل وبرنارد لويس في كتابه العرب في التاريخ)، كتبوا آنذاك في مبادرة العرب والمسلمين إلى المزاوجة الناجحة بين الحداثة والتقليد .أما مايكل هدسون، فقد انصرف إلى الكتابة في "تجديد المشروعية" في نظام الحكم لدى العرب خارج أطروحات ماكس فيبر تحت شعار التغيير والتجديد، والعلاقة الأخرى بين الجمهور والسلطات واتخذت الأمور مناحي أخرى منذ منتصف السبعينات من القرن المنقضي، على وقع هزيمة العام ١٩٦٧ ، والفشل في استثمار نتائج حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، واستعلاء الاستبداد، وانتشار الحروب الأهلية وايديولوجياتها. وكان من ضمن المتغيرات (السلبية :إذا صح التعبير التقويمي هذا)، تعبيرا عن العلائق المتبادلة بين المعرفة والسلطة، ظهور انثروبولوجيات السلب تجاه الماضي الإسلامي :فما دام العرب على هذه الحال في الحاضر، فإن ذلك يعني أن الحال كانت كذلك في الماضي البعيد أيضا.

• على مر العصور كانت هناك فترات شد وجذب في العلاقة مع الغرب، وكان هناك تفاوت في فهم وتوضيح ومستقبل هذه العلاقة بين المفكرين، كيف تنظرون إلى ذلك لاسيما في عصر المعلومات والتقانة؟

– ليس عندنا حل إلا أن ندخل مع الداخلين، ونهجم مع المهاجمين، ونحاول أن نشارك بقدر ما نستطيع عن طريق إمكانياتنا المادية، وقدراتنا وموقعنا الاستراتيجي وأرى أن ندخل من دون شروط، عندما تمت الثورة الصناعية في أوروبا في القرن الثامن عشر، مات ملايين من الأطفال تحت سن الثانية عشرة كانوا يعملون، واستعبدت ملايين من النساء، التكلفة كانت عالية، والتكلفة التي تدفعها الصين الآن من أجل التقدم بعد أن كلفهم أحد زعمائهم مئات الملايين من الموتى في ثوراته، كل هذا لأنه وحد الصين ودفعها إلى الاستقلال غفر له. الآن نفس التكلفة تعيد الصين دفعها من أجل التقدم، وكان يجب أن تدفعها من خمسين سنة، الآن وسط القيم التجارية، والنظام الرأسمالي ليس هناك شيء مضمون حتى يبلغ درجة التحرير الاقتصادي الذي تفرضه المؤسسات الدولية، والآن عندنا في العالم الإسلامي يحدث بؤس كثير، إجراءات التحرير الاقتصادي جارية على قدم وساق، والبؤس يزداد، ولكن هذه ضريبة التقدم في عالم الأقوياء، لابد من دفعها، ولعلك تقول لي :ما هذا الاستسهال؟ أقول لك :دلني على خيار آخر.

• ظهرت دعوات عدة إلى حوار جدي حضاري بين الغرب والإسلام، ما نوعية هذا الحوار من جهة، وكيف يجب أن يكون الخطاب الديني في هذه المرحلة؟

– ليس هناك صراع أو حوار بين الحضارات، فالحضارات ليست كائنات سياسية وأنا أرفض مثل هذا الكلام، والكلام المنطقي في رأيي أن هناك مشكلات سياسية واقتصادية وثقافية بيننا وبين الأمريكيين والأوربيين
ونناقشها باعتبارها كذلك وليست باعتبارها مناقشة بين الحضارة الإسلامية والغربية.
من جهة أخرى أرى أن الخطاب الديني الحالي به عيوب ولكني لست مع فكرة أن يكون تجديد الخطاب الديني له الأولوية .نعم الخطاب الديني والفكر الديني يجب أن يتغيرا ولكن آليات وطرق التغيير في المسائل الدينية تختلف عن آليات ومسائل التغيير الثقافية والسياسية والاجتماعية الأخرى .فالإصلاح الديني لايتم إلا على المدى الطويل ولابد ألا يلهينا ذلك عن مشكلتنا الأساسية وهي الجمود السياسي والديكتاتورية والإرهاب وفشل التنمية وكلها مشكلات لا علاقة لها بالدين او بالإسلاميين، فمشكلة الإسلام الأصولي هي نتيجة لفشل السلطة والديكتاتورية وليست هي لب المشكلة.

• درستم الاستشراق ورجاله وكتبتم عن دوره وتأثيره ومراحله وأوضاعه الحالية، هلا أوجزتم لنا رأيكم في هذا الموضوع؟

– إن الاستشراق كان المصدر الأول للبدايات التأملية الانثروبولوجية في الشرق الأوسط. في تلك المرحلة كان المستشرقون (حتى منتصف القرن التاسع عشرتقريبا) علماء للعهدين القديم والجديد، أو

• غـــــروب الاســـتـــشـــراق بالمعنى القـــديم كـان نكسـة لنا... «والـتـــحـــرير الاقـــتـــصـــادي» والبـؤس المتـرتب عنه ضـــريبـــة التقـدم في عالم الأقـــــويـاء!

مـبـشـرين، وفي أفـضل الحـالات علمـاء بالدراسـات السـامية أو هواة رومنطيقيين. ومن أجل ذلك يربط ادوارد سـعيد بين الاستشـراق والانثروبولوجيـا ليس في النشـأة، بل في المادة التي اعـتـمـداها، ثم في إنهـمـا علمـان اسـتـعـماريان أو نشـآ في مـرحلة الاستعمـار ولخدمته .لكن لا يصح الخلط في هذه الحـقـبـة، أي مطلع القـرن التـاسع عـشـر، بين مـادة العلم ومنهـجه أو مـوضـوعه. فـالانثروبولوجيـا في القـرن التـاسع عـشـر علم وضـعي متطور، كـان بدأ بملاحظات وجـمع مـعلومات في اميـركا الشـمـالية والجنوبية، في القرنين السادس عشر والسابع عشر فهو فعلا وليد الاستعمار، وإن حاول الاستقلال عنه في السـبعين سنة الماضيـة. أما الاسـتشـراق، فقـد ارتبط بمحـاولة الكنائس البـروتسـتـانتـيـة ثم الكاثوليكيـة، أن تعـرف أكـثـر عن مـوطن المسـيح. وخـضع التـخـصص منذ البـداية لإرغـامـات في مـفـاهيـمـه للحـقيـقـة، ثم في عـلاقـته بتطور العلوم التـاريخيـة والاجـتـمـاعيـة، وأخيـرا في عـلاقـته بالاسـتـعـمـار والسلطات الاسـتـعـمـارية .مـفـاهيم الحقيقة فيه خضعت لإرغامات لأن صورة فلسطين والشـرق كـان ينبـغي أن تطابق الوارد في العـهـدين القديم والجديد. ولهذا فطوال القرن التاسع عشر، وحتى الربع الأول من القرن العشرين، ظلت دراسات كثيرة تتراوح بين اعتبار الإسلام مسيحية محرفة أو يهودية منحـرفة، فتريح نفسها بذلك من الاعتراف بالتغيـيـر في المنطقة بعد عصور الإنجيل. لكن في الوقت الذي كـان الاسـتـشـراق يتـعـمق بين دراسـة اللغات السـامية القديمة، واستكشـاف المعالم والآثار، كان العهدان القديم والجديد يتحطمان تحت وطأة الدراسـات النقـدية، التـاريخيـة والأثرية والألسنيـة، فتنفصل الدراسات اللاهوتية، والأخرى النقدية عن الاستشـراق، ويصير الاستشـراق تدريجياً اختصاصا في فيلولوجيات أو تـاريخ الإسـلام والشرق الإسـلامي وشـعـوبه وثقـافـاته. ومع هذا الانفـصـال صـار الاسـتشـراق أحـد العلوم التـاريخيـة، فـاقـترب مـرة أخرى من الانثروبولوجيا مع فارق أساس في المنهج. فالمنهج الانثربولوجي منهج تأصيلي يفسـر كل شيء بالعـودة إلى الأصل المفـتـرض رمـزا أو حـقـيـقـة أو تاريخا، بينما التاريخانية التي تعتمد الفيلولوجيا النصيـة، والتطورات التاريخيـة، هي التي تسود في الاسـتشـراق .على أن الأمـر الأكثر تعقيدا يتصل بعـلاقـة الاسـتشـراق بالسلطة أو بالأحـرى السلطة الاسـتـعـمـارية. فـفي حين كـانت إشكاليـة الانثروبولوجيا مزدوجة أو مركبة من ازدواجين، كان هنـاك ازدواج من نوع آخـر في الاسـتـشـراق؛ في الانثـروبولوجـيـا كـان هنـاك ازدواج البـدائي في مواجهة المتحضر، والمستعمَر. في مواجهة المستعمِر بينمـا كـان الأبرز في الاسـتشـراق النقـيض الثـانيِ: مستعمِر/ مستعمَر فـحتى بعد الاستقـلال، كان الاستشـراق يمارس في دوائر الجامعات التي أنتجت الأطروحات الأساسية عن المجتمعات غير الاوروبية، وغير المتقدمة بالمقاييس نفسها.

• رضوان السيد:
- حـاصل على دكـتـوراه الفلسـفـة من جـامـعـة توبنغن الألمانية.
- أستاذ الدراسات الإسلامية في الجامعة اللبنانية.
- مدير المعهد العالي للدراسات الإسلامية.
- رئيس التحرير المشارك لمجلة «الاجتهاد».

مناضلة لبنانية نفذت عملية اغتيال
العميل أنطوان لحد .. وصمدت في الاعتقال عشر سنوات

سهى بشارة .. عصفورة الحرية وزهرة الجنوب

عواطف الزين

• كتابها «مقاومة» أرّخ لحظة كفاح عربية في الصراع ضد الاحتلال الصهيوني لجنوب لبنان .. توِّج بتحرره.

الحرية

أن يكبر المرء أثناء الحرب الأهلية ويتقلد السلاح ويطلق الرصاص على قائد جيش لبنان الجنوبي الذي كان عميلاً للصهاينة واندحر باندحارهم ويصمد على مدار عشر سنوات في معتقل الخيام وجحيمه.. تلك هي الصورة المؤثرة للغاية التي رسمتها امرأة استعصت دوماً على الاستسلام.

إنها سهى بشارة المقاومة اللبنانية الجنوبية التي تحررت من أسر العدو قبل حوالي ثلاث سنوات وأصدرت كتاباً ضم تفاصيل أسرها والعملية الفدائية التي نفذتها ضد انطوان لحد قائد ماكان يسمى بجيش لبنان الجنوبي، والكتاب يحمل عنوان مقاومة - بكسر الواو - نشر باللغة الفرنسية وتمت ترجمته إلى العربية.

تقول سهى في مقدمة الكتاب عن المكان الذي اعتقلت فيه (معتقل الخيام). لم أكن لأتخيل ما حييت مكاناً أصغر من ذلك المكان الذي كنت فيه، وإذا وجدتني ثانية أمام الزنزانة رقم ٧ طال بي الوقت حتى استوعبت أنني عشت هنا حقاً بين هذه الجدران في حيز ضيق إلى هذا الحد، وأني أمضيت في هذا المعتقل عشرة أعوام من حياتي. ثلث أيامي وثلث لياليّ.

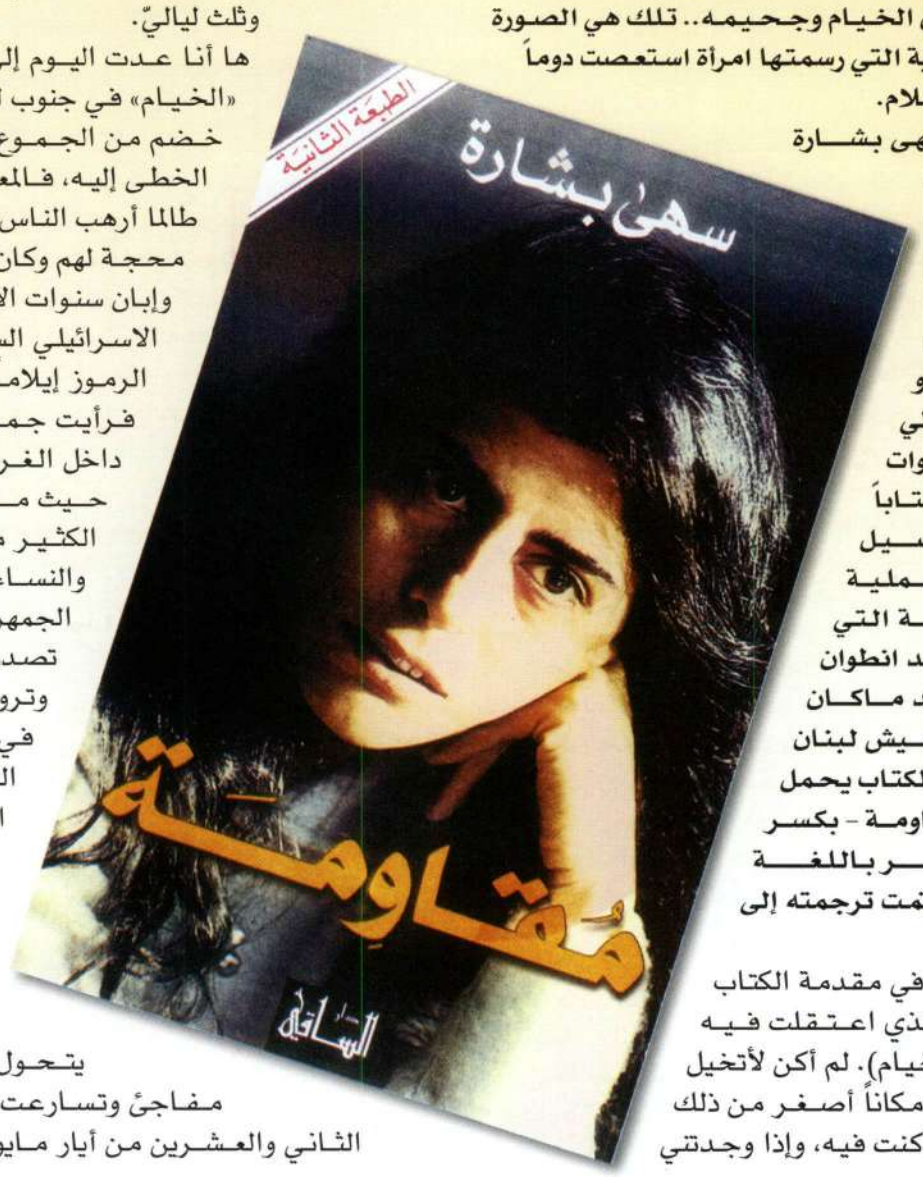

ها أنا عدت اليوم إلى معتقل «الخيام» في جنوب لبنان وسط خضم من الجموع التي تحث الخطى إليه، فالمعتقل الذي طالما أرهب الناس، بات اليوم محجة لهم وكان قبل اليوم وإبان سنوات الاحتلال الاسرائيلي السوداء أشد الرموز إيلاماً للوطنيين، فرأيت جمهرة الزوار داخل الغرف المقززة حيث مرّ الكثير الكثير من الرجال والنساء رأيت هذه الجمهرة تنظر ولا تصدق أبصارها وتروح تخمن في ما ترى العذابات التي كبلت لكل معتقل ومعتقلة فيه.

كان التاريخ يتحول على نحو مفاجئ وتسارعت أيامه منذ الثاني والعشرين من أيار مايو من العام

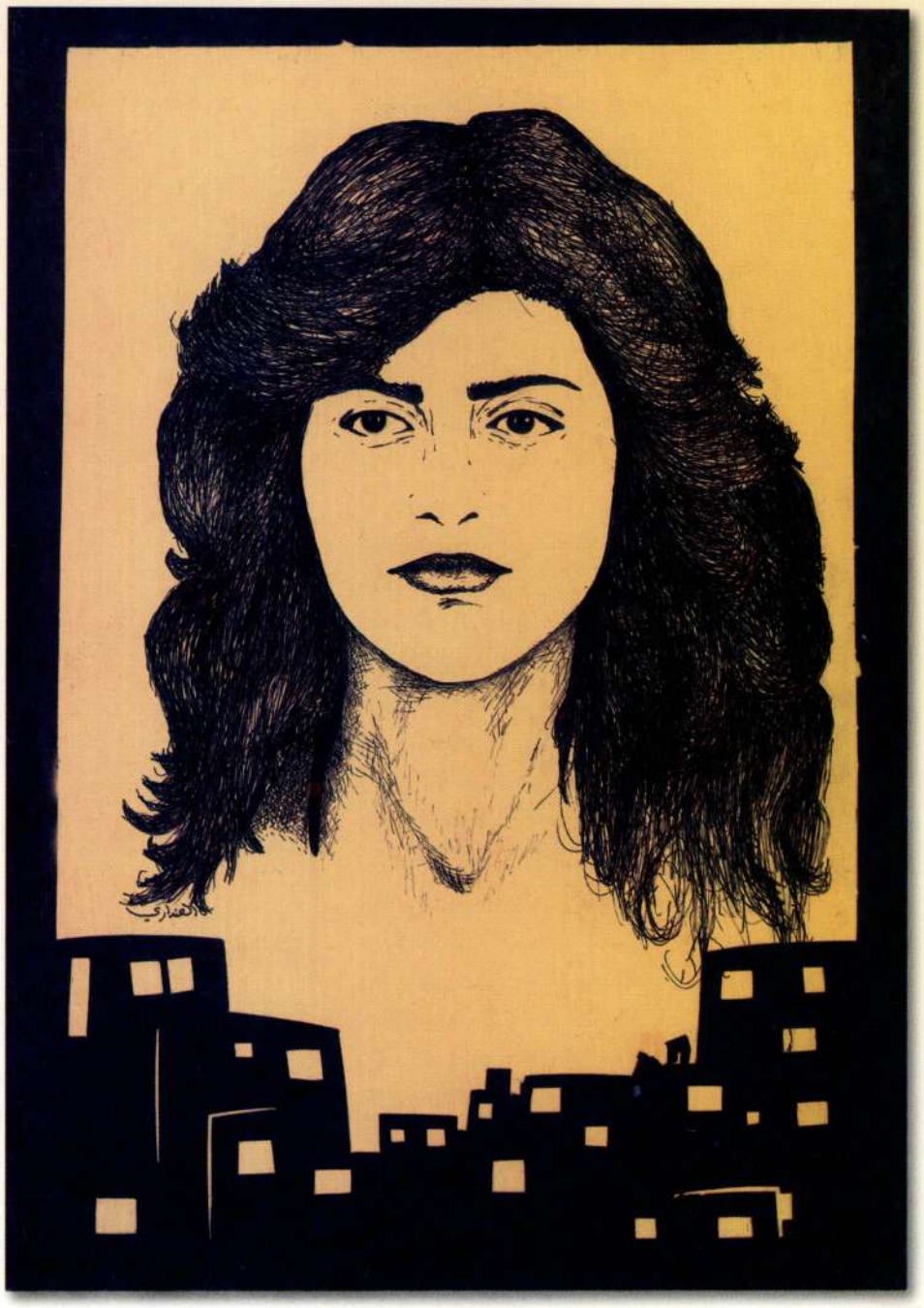

٢٠٠٠ حيث سرع الاسرائيليون انسحابهم من المنطقة التي كانوا يحتلونها منذ العام ١٩٨٧ في جنوب لبنان رغماً عنهم ولما أدركت المليشيات اللبنانية المرتزقة لدى اسرائيل أنه لم يعد لها الحظ في البقاء وأنها صارت في حكم المتروكة لمصيرها في أجل قريب، أخذ أفرادها يسلمون أنفسهم إلى حزب الله الذي كان قد أصبح بدوره رأس الحربة لمقاومة هذا الاحتلال، وحيال هذا الأمر حين وجدت الفرق الاسرائيلية أن الدرع البشرية التي طالما سعت للاحتماء بها من المقاومين قد انهارت أدركت أن لحظة الانسحاب قد حانت قبل أن تتحمل تبعات إطالة بقائها في لبنان وخروجها منه بأثمان باهظة، وخلال ٤٨ ساعة أخلى الاسرائيليون مواقعهم بعد أن دمروا دشمهم وانكفأوا إلى داخل فلسطين المحتلة. في الوقت الذي عاد فيه قائد ماكان يسمى بجيش لبنان الجنوبي، انطوان لحد إلى اسرائيل بعد إقامة طويلة له هناك إثر تعافيه من الإصابات البليغة في العملية الفدائية التي نفذتها ضده.

شاءت الأقدار أن يرتبط مصيري بمصير ذلك الرجل لاثنتي عشرة سنة خلت.

وتتذكر سهى طفولتها ومرحلة المراهقة الصعبة التي شهدت تبلور شخصية المقاومة في أعماقها فتقول: كنت طالبة شيوعية متحدرة من عائلة مسيحية متعلقة بوطني كثيراً وجدت نفسي منخرطة في الحرب منذ مراهقتي المبكرة ضد كل ما يجسد هذا الوجود الغريب في أرضي، ودفعت من حريتي ثمناً لخوضي هذه الحرب إذ أودعت في الزنزانة بلا محاكمة ودون أن يتسنى لي معرفة سنوات العقوبة المفروضةعلي.

عشر سنوات سلخت من حياتي لم يغب عن خاطري - منذ أن تحرر الجنوب - ولو ليوم واحد ما عشته في معتقل الخيام ولم تبارح مخيلتي صور الذين كانوا لا يزالون يعانون القهر والعذاب فيه.

وذات صباح وأثناء إقامتي المؤقتة في باريس تلقيت رزمة مرسلة إلى عنواني من لبنان حللت الرزمة فوجدت في داخلها ما يشبه المخدة فسارعت إلى إخراجها من علبتها ووضعتها على مكتبي ورحت أتأملها دون أن تراودني أدنى فكرة عما يمكن أن تكون إنها مجرد هدية، مضت دقائق وأنا أحاول إدراك سر تلك الهدية، حتى التمع في ذهني بارق ففهمت، حللت حبكة المخدة فوجدت داخلها قصاصات من الورق كتب عليها جميعاً بخط واحد عرفت بعدها أنه خطي ابتلت عيناي بالدموع وأخذت أرتب هذه الكنوز فوق سريري وتبين لي فيما بعد أن إحدى المحررات من المعتقل حديثاً شاءت أن تحمل في طوايا ثوبها هذا الجزء الصغير من ذاتي الذي كان لا يزال معتقلاً هناك عاينت قصائدي التي كتبتها في المعتقل خلسة ولم يكن بوسعي حملها، حيث انفتحت لي بوابات المعتقل على نحو مباغت ولولاها لكان قد قدر لذاكرتي أن تظل أسيرة في المعتقل.

ولدت سهى بشارة في قرية ديرميماس الجنوبية وأدركت في سن مبكرة الواقع المأساوي الذي يعيشه الجنوب اللبناني كان ميلادها بعد هزيمة حزيران يونيو مباشرة أي في الخامس عشر من حزيران عام ١٩٦٧ في ذلك اليوم كانت الجيوش المصرية والأردنية والسورية تجرجر أذيال الهزيمة على يد الجيش الاسرائيلي وكان جمال عبدالناصر في هذه اللحظة بالذات ومن القاهرة يقدم استقالته إلى شعب مصر المصاب بالذهول وهو يرى رئيسه الأسطوري يتهاوى.

وتقول سهى ولادتي في يوم هزيمة العالم العربي جعلت والدي يطلق علي اسم (سهى) ويعني النجمة - ربما طلباً للأمل وهو الرجل السياسي والنقابي الأثير في لبنان ومنذ أن وعيت الأمور شعرت بقوة

● منذ مراهقتها المبكرة انخرطت في مقاومة الاحتلال ودفعت عشرة أعوام من حياتها ثمناً دون أن تشعر بالندم

• ولدت في قرية «دير ميماس» الجنوبية .. لأب نقابي وسياسي مناضل أسماها «سهى» لتكون نجمة النصر في زمن الهزيمة.

شخصية والدي وتأثرت بها وكذلك والدتي التي لم تكن حزبية ولكنها كانت تتفهم والدي وتعمل على إرضائه وتتصرف بوعي وإدراك وحكمه.

لم تعش سهى سنوات طفولة أو مراهقة عادية وإنما أمضت تلك المرحلة من العمر وهي تتدرب على المقاومة بشتى السبل وحين قدر لها أن تقوم بتنفيذ عمليتها الفدائية الشهيرة وهي إطلاق النار على قائد جيش لبنان الجنوبي «انطوان لحد» في منزله بعد أن نجحت في دخوله من خلال إقامة علاقة صداقة مع زوجته وتم اعتقالها في تلك اللحظة لتمكث عشر سنوات في المعتقل من عام ١٩٨٩ حتى عام ١٩٩٩ وتتذكر سهى بألم بعض المواقف الصعبة التي مرت بها في المعتقل فتقول: كان يتم إيقاظ المعتقلات فجراً ويتناولن فطوراً بسيطاً للغاية ويكون عليهن أن ينظفن الزنزانة ثم يتناوبن في الخروج كل بدورها لإفراغ الدلو والاستحمام كل ذلك في خمس دقائق ومن تتأخر تنال عقوبة شديدة فالصمت هو القاعدة ومن يجرؤ على الصياح يعاقب، كذلك فإن السعال ممنوع وعلى المعتقلات أن يتحدثن بصوت خافت وممنوع عليهن التحدث مع النساء في زنازين أخرى. إلى سلسلة طويلة من الممنوعات هذه لمحة بسيطة من ملامح التعذيب في معتقل الخيام الذي شهد كل صنوف التعذيب والقهر والتنكيل ضد شباب وشابات أحبوا وطنهم ودافعوا عنه ليعاقبوا ويدفعوا حياتهم أو جزءًا منها ثمناً لذلك الحب.

وتضيف سهى:

حين دخلت المعتقل كان عمري ٢١ سنة كانت الأيام الأولى فيه منهكة للغاية ووجدت نفسي أمام سيل من الأسئلة في استجوابات لا تنتهي حتى تبدأ من جديد، ومنذ أن صوب أحدهم مسدسه إلى صدغي بعيد العملية بالضبط تباعد شبه إعدامي بلا محاكمة بعدما علمت أن انطوان لحد نجا من العملية ولم تمته الجروح البليغة التي أصيب بها.

تسرد سهى في كتابها الشيق ذكريات لا يمكن أن تنسى للبطولة والشجاعة عند المعتقلين سواء كانوا رجالاً أم نساء وتتذكر بحنين دافئ وحزين كل زميلاتها اللواتي تعرفت إليهن خلال فترة اعتقالها وتقول: إن سنوات الاعتقال لم تذهب سدى فقد تعلمت القرآن الكريم من المعتقلات المسلمات وكانت تقرؤه كل يوم كما أنها ابتدعت الكثير من الحيل لتخفيف حدة الاعتقال.

هذه هي سهى بشارة ذلك الرمز الحي للمقاومة اللبنانية التي تعرضت لتعذيب قاس وطويل لكنه لم يستطع أن يثنيها عن عزمها أو أن يدفعها إلى قول شيء لا تود البوح به.

تقول سهى أخيرا بأن لكل امرئ الحق في مقاومة الظلم ومن يطلب الحرية ينبغي له أن يتجاوز ذاته على الدوام.

العملية

تصف سهى مرحلة التحضير للعملية وتفاصيل حدوثها فتقول:

في صبيحة ذلك اليوم المحدد لرحيلي ودعت أبي دون أن أعرف إذا كنت سأراه يوماً.

بت لا أعرف ماذا ينتظرني ورحت أتخيل أن الأمور توشك منطقياً أن تسير بخلاف ما أتمناه وأن العملية يمكن أن تنجح أو تفشل. لم تستغرق الرحلة وقتاً طويلاً ولما بلغت الحاجز وجدت أن الجندية المكلفة بتفتيش النساء لم تكن موجودة وتعرضت للتفتيش من قبل جندي آخر من جنود جيش لبنان الجنوبي - مرت أيام صعبة وطويلة قبل أن أذهب لزيارة «ميزفا» زوجة انطوان لحد.

كانت الساعة تقترب من الثامنة مساء حين دسست يدي في فتحة حقيبتي مشيرة إلى ميزفا بأنني جلبت لها المفاتيح والشرائط المسجلة التي طلبتها مني وقبضت يمناي بشدة على أخمص المسدس وببرودة أعصاب صوبت بذراعي اليمنى نحو قائد المليشيا وأسندت معصمي بيسراي وصوبت نحو القلب.

ضغطت على الزناد للمرة الأولى فرأيت الطلقة تخترق سترة الثياب الكاكية لقائد الحرب هذا، فما كان منه إلا أن قفز على قدميه مذهولاً وسمعت شتيمة تخرج من بين شفتيه «بنت الكلب» فأطلقت ثانية سقط أرضاً وماهي إلا لحظة حتى شق الصمت عويل ميزفا وقد أصابها انهيار وراحت تملأ الفضاء صراخاً طالبة سلاحاً لتقتص مني وطوافة عسكرية لنقل زوجها إلى المستشفى. رميت بالمسدس في غرفة النوم المتفرعة من قاعة الجلوس وعلى بعد مترين مني رأيت جسد لحد يهوي أرضاً ويتوقف بلا حراك.

تم لي ما أردت ونجحت في القيام بعمليتي.

حوار المخابر... والمناظر

د .نسيمة الغيث

الكويتية في أقوالنا المأثورة، وأمثالنا الشعبية :أن الناس مخابر، وما هي مناظر !!معنى هذا أن أدبيات الشعب الكويتي مع الحقائق، مع الجوهر، مع الصدق، وضد الزيف، والقشور، وزركشة الكلام .ومن قبل نصح سيد الحكماء، صلى الله عليه وسلم، وحذر المتخاصمين المتحاكمين أمامه من أن يعتمد أحدهما على ذلاقة لسانه، وقدرته على التعبير، فيؤدي هذا إلى أن يحصل على حكم في صالحه، وينال بزينة الكلام ما ليس من حقه، وهنا جاء قول البشيرالنذير مهددا، معلنا أن من قضى له بشيء على هذا الأساس الخادع، فإنما قضى له بقطعة من النار!!

في عصرنا هذا، عصر الإعلان، والإعلام، وبدعة العلاقات العامة، وفن الدعاية لم يعد أحد يفكر كثيرا في المخابر، أصبحت المسألة كلها مناظر في مناظر، ستصدقني إذا جلست أمام التلفزيون وتابعت الإعلانات ...السيارات تطير طيرانا بين الجبال الخضراء وفي أحياء خرافية الجمال،ولابد أن تكون السيارة بقيادة حسناء، ومع أن السيارة مكشوفة، وتسير باندفاع هائل، فإن الشعر المسترسل الحرير لا تخرج منه شعرة واحدة من مكانها المرسوم، وكأن السائقة «الغندورة» تجلس في صالون تجميل!!

والعلاقة بين السلعة (السيارة)، والدعاية لها بتحريك الرجال نحو الجمال؟ وهل سيتم بيع السيارة وفيها (من ضمنها) هذه الحسناء ؟ فإذا كان الإعلان عن نوع من الطعام: اللحوم المحفوظة أو الزبدة ، أو حتى الشبس والبفك... فلابد أن يكون على النار «يطشطش»، وأن يكون ذهبي اللون، وفي مطبخ مثالي، ولا مطعم مكسيم الشهير في باريس ولا مانع من أن تكون بجوار مقلاة الطهي حسناء رشيقة، تغني وترقص، ولا أعرف كيف تتمكن من ملاحظة الطعام وهي في هذا الانسجام الشامل، وقد يكون طباخا رجلا، وفي هذه الحالة سيكون وسيما جدا، وكأنه يعمل دعاية لنفسه ويبحث عن عروس، وليس يعمل دعاية لنوع من الطعام ويبحث عن مشتر... وكذلك لاحظ مريوله الأبيض الناصع البياض، وهذا «البرج» الذي يضعه على رأسه، ويحتاج إلى مساعد فني كي يحفظ له توازنه، فلا يطيح ولا ينخفس!!

المسرح المعاصر تصدي للمظاهر، ووضعنا أمام فجيعة عصرنا، وقال إن المظاهر هي التي توجه حياتنا، وأننا لا نتمعن، ولا نتأمل، ولا نحلل، ولا نعلل، وإنما نشاهد، وننبهر، ونوافق... ونصفق!!

في مسرحية"الملك هو الملك "للمرحوم سعد الله ونوس كتب عبارة بحروف من الألم والغضب، وقال :أعطني تاجا وصولجانا أعطك ملكا !!معنى الكلام أننا لا ننظر إلى " الشخص "ولانفكر في "الفعل "ولا نفرق بين قول وقول، إننا نكتفي بمشاهدة المنظر العام ...المظهر، ونسلم بأنه مادام المنظر سليما، ويحقق لنا الصورة الجميلة التي نتوقعها، فلا بد أن يكون المخبر كذلك !!والقضية بهذا الشكل فاسدة مغلوطة، تسيرعكس السير - على رأي رجال المرور - لأن المخبر هو أساس القياس، وهو الذي نتعامل معه، أو يجب أن نتعامل معه، أما القشور ...المناظر ..فإنها آخر ما يستحق أن نهتم به أونفكر فيه.

أذكر ذلك، بطبيعة عملي، واهتمامي بالأدب في العصر العباسي، أنني عرفت عن بعض أدباء ذلك العصر ما هو ضد المنظر الجميل ..على رأس هؤلاء الجاحظ، بكل مانعرف عن الجاحظ من ظرف ودعابة وذكاء، وكان أبو حيان التوحيدي - وأعتذر إليك عن فجاجة الكلمة - لا ينظف، أنفه، ونادرا ما كان يحمل منديلا، وأترك لك تخيل المنظر المستهجن، لمفكر عظيم معروف بالحكمة، والدقة، والثقافة العالية .وقرأت عن أبي الفرج الأصفهاني صاحب أكبر موسوعة أدبية في التراث العربي، أنه كان وسخ الثياب، طويل الأظافر، وطويل اللسان أيضا، وربما كان هذا هو السبب في أن كتابه جاء طويلا جدا فوق العشرين جزءا!!!

هؤلاء بعض من كانت "مناظرهم "غير سارة، وكان جهدهم وصنيعهم عظيما، وقد اختفت القشور، فني الجسد، ذهبت المناظر، وبقى من الجاحظ أحلى أثر أدبي في العربية، وهو كتاب البخلاء، وبقى من أبي حيان الإمتاع والمؤانسة، وبقى من الأصفهاني كتاب الأغاني ..بقيت المخابر ..جواهر العقل، وثمار الحكمة، وسعة المعرفة، وأمانة العلم ..والحمد لله أنه لم يكن في زمانهم إعلان ولا إعلام ولا علاقات عامة، وربما لهذا السبب لم ننخدع عنهم ..إنهم نور بصائرنا، ونجوم ثقافتنا، هذا هو منطق الحقائق، وحكم المخابر، أما المناظر (المسرحية) فلتأخذ مكانها وراء الكواليس!!

قصص من التراث

إعداد: د. فايز الداية

روى لنا الكاتب أحمد بن يوسف ابن الداية عدداً من القصص في كتابه «المكافأة وحسن العاقبة» كانت نافذة على أحوال عصره فقد عاش بمصر أواخر القرن الثالث وأواسط القرن الرابع الهجريين وعرف أحوالاً متقلبة، فأراد الوصول إلى أعماق النفس البشرية وعلاقات الناس في مجتمع يأتلفون فيه وتشد بعضهم إلى بعض القيم النبيلة وصفاء السريرة، ونهج هذا الكاتب، مارأيناه لدى الجاحظ الذي سبق إلى الواقعية والنقد في نهجه القصصي وتضمينه الأمثال كما يسمعها من المتحاورين استكمالاً لإيقاعها الطريف، ولعل عودتنا إلى هذه القصص تفتح الأبواب لتأمل في مرآة تحمل ملامح الإنسان.

المعروف يزين صاحبَه

«كان بمصر رجلٌ من الفقهاء مشهور وله حلقةٌ عظيمة بالجامع. فبينا هو في صدرها إذ وافى (علان بن المغيرة)، فلما رآه مقبلاً نحوه قام إليه على رجليه، ثم خطا إليه حتى لقيَه. فاستكثرت الجماعة قيام شيخ مثله إلى شاب مثل علان، وتحفّيه به، وعَرَضِ نفسه عليه، وأنه لم يدع شيئاً يفعله تابع بمتبوع إلا بَذَله، وأسررنا الغضب والحنق، فلما قام (علان) قال لجماعتنا: أنا أعلم بما في نفوسكم ولكنّي أريكم عُذري فيما أنكرتم مني.

«كانت عندي ألف دينار وديعة لرجل بالمغرب قد طال مقامها، وطالب زوج ابنتي بإدخال امرأته عليه، فجلست أمها بحضرتي فقالت لي: « ما الذي تراه فيما قد ألح فيه هذا الرجل؟»، فقلت نتدبر العرس بشيء من التساهل، فقالت لي: «لنا حساد نخاف شماتتهم، ولابد من أن تعينني على التجمل»، فقلت:« إن كان ماتريدين في قدرتي لم أبخل به عليكم». قالت:« هو في قدرتك!» قلت: «ماهو؟»، قالت: «تمكنني من هذه الوديعة، ونحتاط فيما نبتاعه من الجهاز حتى يصل إلينا ثمنه في أي وقت أردناه، وندخل هذه الصبية على زوجها. فإن جاء صاحب الوديعة بعنا ما أشتريناه ولم نخسر فيه إلا ما يسهل علينا تحمله قلت: «هذا قبيح عند الله وعند خلقه!». فلم تزل تلح بي وتحتال علي، حتى أجبتها. فجهزت ابنتها بجمع المال، وأدخلتها على زوجها.

فلم يمض بنا بعد ذلك إلا شهران حتى وافى صاحب الوديعة يطلبها، فقلت لها «ما تفعلين؟»، فقالت:« أمضي فأحمل المتاع وأبيعه». فمضت إلى ابنتها ورجعت إلي، فقالت: «لاتعتمد على بيع هذا المتاع، فقد حلف زوجها بطلاقها أنه لا يخرج منه شيء عن منزله»، فسقط في يدي، ورأيت الفضيحة في الدارين متصدية لي: فوضع إفطاري بين يدي فلم أطعم، واعتراني ما خفت منه على عقلي، وبت بليلة ما بت بمثلها، وأنا أتبين سهولة ذلك على زوجتي في جنب ما أحرزته لبنتها. ثم انتبهت قبل الفجر بزمن، فصحت بالغلام «أسرج لي!»، فقام وأسرج، وقال: «يا سيدي! أين تمضي؟»، فقلت: دعك من السؤال!

وركبت وسرت وأنا شارد، فلم يزل بغلي يسير حتى دخلت زقاق (علان بن المغيرة) فوقفت على باب داره، وصاح الغلام بالبواب وعرفه بموضعي. فسمعت حركة في داره، ثم فتح الباب وأذن لي بالدخول. فدخلت عليه. فوجدت بين يديه شمعة وهو يكتب جوابات كتب وكلائه. فلما رآني قام إلي، وقال لمن حضره من الغلمان: «تنحوا!»، وأقبل على فقال: «والله لو بعثت إلي لسرت إليك ولم أجشمك السعي إلي، فاشرح لي أمرك»، فغلبتني العبرة وحالت بيني وبين الكلام، فمازال يسكنني حتى قصصت حكاية الوديعة، وهو مغموم بأمري. ثم قال: «فكم هذه الوديعة؟»، فقلت «ألف دينار!»، فضحك، وقال: «فرجت والله عني فقد ظننتها أكبر مما استطيعه فكاد الغم يقع بسببها فأما وهي في القدرة فما أسهلها علي، وأخفها لدي!»، ثم قال لغلامه: «جئني بتلك الصرر التي وردت علينا من المغرب في هذا الشهر»، فجاء بأربع صرر فنظر فيما عليها وجمعه وقال: «هذه ألف دينار وخمس مئة دينار، ألف للوديعة، وخمس مئة تصلح بها ما بينك وبين من عندك»، ثم قال لي: إني أشكر إفرادك إياي- بعد الله عز وجل ذكره - بتأميلي في حادثة حدثت لك، فأعانني الله على مكافأتك». وأضاف إلي من رافقني إلى منزلي.

فقالت الجماعة: قد سمعنا عذرك، وعلينا عهد الله أن لا نلقاه إلا قياماً.

الجمال صفاء ومودّة

وحدثني أحمد بن أيمن كاتب أحمد بن طولون، قال: «دخلت بالبصرة إلى تاجر ذهب عني اسمه، فرأيت بين يديه ابنين له في نهاية من النظافة، فلما رآني أقبل بنظري إليهما، قال لي: «أحب أن تعوذهما»، ففعلت، وقلت له: «استجدت الأم فحُسن نسلك!»، فقال: «ما بالبصرة أقبح من أمهما، ولا أحب إلي منها. ولها معي خبر عجيب»، فسألته أن يحدثيه، فقال:

«كنت أنزل (الأبلة) وأنا متعيش بسيط فحملت منها تجارة إلى البصرة فربحت، وحملت من البصرة إلى الأبلة فربحت ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربح ولا أخسر، حتى كثر مالي، وتسامع الناس بأحوالي وآثرت السكنى بالبصرة، وعلمت أنه لا يحسن بي المقام بغير زوجة، ولم يكن بها أجل قدراً من جد هذين الغلامين. وكانت له بنت قد منعها وتعرض لعداوة خطابها. فحدثتني نفسي بلقائه فيها، فجئته على خلوة، وقلت له:« «ياعم! أنا فلان بن فلان التاجر»، فقال: «ماخفي عني محلك ومحل أبيك!»، فقلت: «قد جئتك خاطباً لابنتك»، فقال:« والله مابي عنك رغبة، ولقد خطبها إلي جماعة من وجوه البصرة وما أجبتهم، وإني لكاره من إخراجها عن رعايتي إلى من يعاملها معاملة العبيد»، فقلت:« قد رفعها الله عن هذا الموضع، وأنا أسألك أن

تدخلني في عددك، وتخلطني بشملك»، فقال:« ولابد من هذا»، قلت:« لابد، وهو زائد في فضلك علي، واصطناعك إياي»، فقال:« اغد علي برجالك».
فانصرفت عنه إلى ملأ من التجار ذوي قدر ومكانة فسألتهم الحضور معي في غد، فقالوا:« إنك لتحركنا إلى سعي ضائع»، قلت: «لابُد من مجيئكم معي». فركبوا على ثقة من أنه يردهم، وغدونا عليه فأحسن الإجابة وزوجني، وأطعم القوم ونحر لهم، وانصرفوا.
ثم قال لي:« إن شئت أن تبيت بأهلك فافعل، فليس هناك ما نحتاج إلى تجهيزه»: فقلت:« هذا يا سيدي ما أحبه».
فلم يزل يحدثني بكل حسن حتى كانت المغرب، فصلاها بي، ثم سبح وسبحت، ودعا ودعوت، إلى أن كانت العشاء فصلاها بي، وأخذ بيدي. فأدخلني إلى دار قد فرشت بأحسن فرشة، بها خدم وجوار في نهاية من النظافة، فما استقر بي الجلوس حتى نهض، وقال:« أستودعك الله، وقدم الله لكما الخيرة، وأحرز التوفيق، واكتنفنني عجائز من شمله، فجلون ابنته علي. فما تأملت طائلاً وأرخت الستور علينا، فقالت:« يا سيدي إني سر من أسرار والدي، كتمه عن سائر الناس وأفضى به إليك، ورآك أملا لستره عليه، فلا تخفر ظنه فيه. ولو كان الذي يطلب من الزوجة حسن صورتها دون حسن تدبيرها وعفافها، لعظمت محنتي. وأرجو أن يكون معي منهما أكثر مما قصر بي في حسن الصورة»
ثم وثبت فجاءت بمال في كيس، فقالت:« يا سيدي! قد أحل الله لك معي ثلاث حرائر وما آثرته من الإماء، وقد سوغتك تزوج الثلاث وابتياع الجواري من مال هذا الكيس، فقد أوقفته عليك، ولست أطلب منك إلا ستري فقط».
فقال لي أحمد: فحلف لي التاجر:« إنها ملكت قلبي ملكاً لم تصل إليه حسناء بجمالها، فقلت لها: (جزاء ما قدمتيه ما تسمعيه) مني:« والله لا أصبت من غيرك أبداً، ولأجعلنك حظي من دنياي فيما يؤثره الرجل من المرأة!»، وكانت أشفق النساء، وأضبطهم، وأحسنهم تدبيراً فيما تتولاه بمنزلي، فتبينت وقوع الخيرة في ذلك فكافأني الله على ما تلقيت به جميل قولها، وحسن فعلها، فرزقني منها هذين الابنين الرائعين ونحن منقطعون إلى جوده فينا، وإحسانه إلينا».

وفاء الأصدقاء

حدثني هارون بن ملول قال:
لما مات أبي ورثت مالاً جماً وتحفاً نفيسة وكان يقصرني على زي التجار ويمنعني من الإسراف والمبالغة في الهيئة، فعمدت إلى أثواب مزركشة ثمينة كانت في المتاجر التي خلفها والدي، فلبستها وأعطيت لخدم عندي أستعين بهم في تجارتي ثياباً من الديباج مما لايصل إليه أحد من المرفهين في البلد، وجلست في هذه الحالة وحولي الغلمان يختالون بما منحتهم إياه.
وزارني إسحق بن ابراهيم - وهو من أصحاب أبي - يطمئن على أموري فقال لي: لقد سرني زوال حزنك على والدك وحسن زيك بارك الله عليك وأحسن إليك.
ثم زارني جماعة من إخوان أبي وأصفيائه فوالله ما أنكر علي واحد منهم ما غيرته من ملابسي وهيئتي فلما جاء المساء أتاني رسول من إسحق يدعوني بقوله «عندي ضيوف ممن تعرف فلعلك تحضر فتؤنس جماعتنا فقد أعجبني اليوم زيّك». فزدت في التأنق ومضيت إليهم، فلما دخلت رأيت أصحاب والدي جميعهم، ولما توسطت صحن الدار ابتدرني الغلمان، وصاح بي إسحق: تتوهم يا جاهل أن أباك مضى واسترحت؟! ولا تعلم أن أباك خلّف لك هؤلاء الآباء يردونك عن الخطأ بأليم العقوبة، ولا يشفعون في مصلحتك من عظيم ماكان أبوك يرق عنه فيك؟.
ثم بُطحت في وسط الدار، فصحت بهم: يا سادتي والله ما قرعت بمقرعة قطّ ولا كان مني ما يستحق العقوبة، فقال إسحق:« ولكنك تدري ما فعلت وما خرجت إليه من الاستهتار» وضُربت ضرباً مبرحاً، ولم ترفع المقرعة عني حتى حلفت لهم ألا أزيد على معرض والدي واقتصاده.
فأقمت على ذلك إلى اليوم».

أقامه مكتب الشهيد .. بمشاركة عدد من الجهات

المخيم الربيعي الثاني عشر لأسر

تكريم المشاركين

العرضة الشعبية كانت متواجدة

علم الشهيد يرفرف في صحراء الكويت

متابعة: دلال الفهد

● حرص مكتب الشهيد على إنجاح المهرجان خططاً وبرامج دليل حرص مسؤوليه على أوثق تواصل مع أسر الشهداء.

الكويتية اعتاد مكتب الشهيد أن يملأ العام بفعاليات وأنشطة تعود بالمتعة والفائدة على أبناء وأسر الشهداء على مدى الثلاثة عشر عاماً الماضية، ولا تزال هذه الفعاليات وهذه الأنشطة مستمرة بشكل متجدد ومتطور عاماً بعد عام، وقد كان للمخيم الربيعي الثاني عشر الذي تم تنظيمه هذا العام نكهة خاصة في ظل البرامج والفقرات التي تم إعدادها خلال المخيم والتي شارك فيها أسر وأبناء الشهداء من كافة الأعمار والفئات، إضافة إلى أن البرامج التي تم إعدادها نالت استحسان الجميع وتم الحرص على تغطية جميع الاحتياجات أثناء المخيم ليستمتع الجميع بهذه المناسبة التي جمعت فيها الجو الجميل والمكان المناسب والبرامج الممتعة.

إن فترة الربيع في دول ذات مناخ حار هي فترة

والمؤسسات الكويتية

الشهـداء.. الفـائدة والمتعـة معـاً

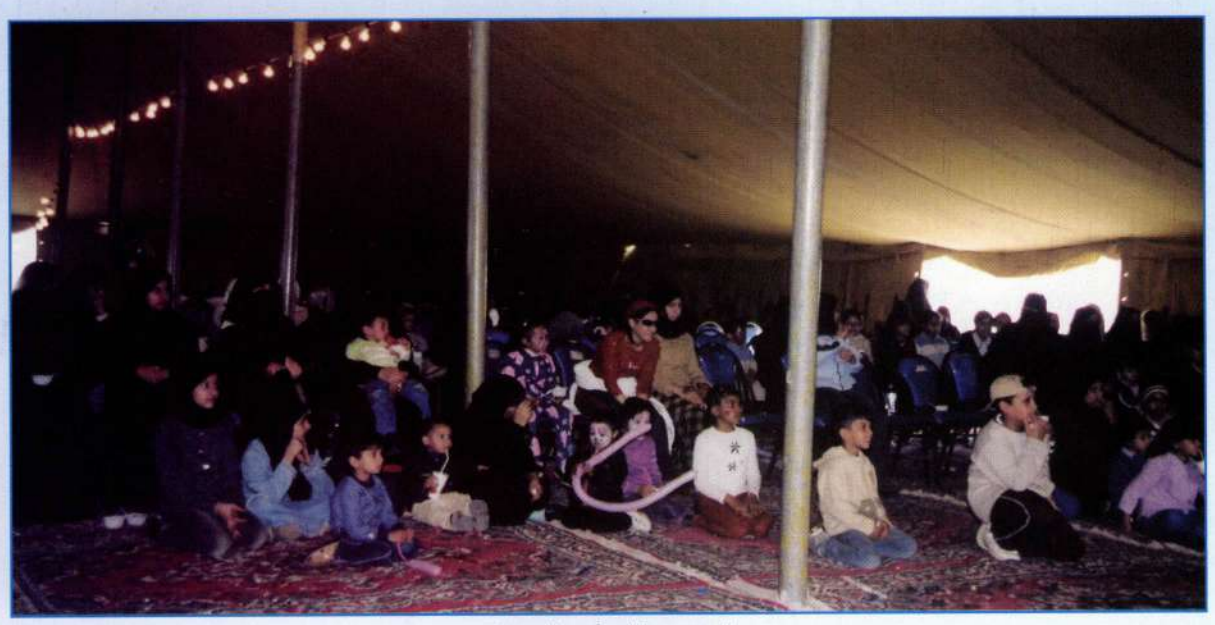

الجمهور يتابع أحد العروض

«الدورفة» وسعادة الأطفال

الفرحة تطل من العيون

قصيرة ويحاول الجميع خلال هذه الفترة الاستماع بكل لحظة ويوم من أيام الربيع وتمثل الإجازات والعطلات الدراسية فرصة للأسرة ككل لتستمتع بهذا الجو سواء من خلال برامج يتم إعدادها من قبل رب الأسرة أو من خلال جهة تدعو الأسر للالتحاق ببرامج معينة.

لقد حرص مكتب الشهيد كل الحرص على التخطيط لهذه الفترة فأعد مخيماً ربيعياً جمع فيه أسر وأبناء الشهداء للاستمتاع بجو الخيام والأجواء الصحراوية وقد كان فرصة لقضاء الوقت ببرامج تم إعدادها من قبل المكتب لأسر الشهداء خلال إجازة الربيع تجمع بين الفائدة والمرح معاً.

وقد أعطى هذا المخيم فرصة للمشاركين للتثقف والتعلم من خلال سلسلة الأنشطة العلمية والثقافية والتربوية والرياضية والترفيهية التي عادت بالفائدة

• هيئة الشباب والرياضة والنادي العلمي والهلال الأحمر الكويتي ووزارتا الصحة والداخلية ساهمت في المخيم وتنويع أنشطته.

جانب من وسائل الترفيه

الدراجات الهوائية شاركت في لعب الأطفال

الساحر كان متواجدا

مشاركة النادي العلمي

• الأنشطة الثقافية والفنية والرياضية اجتذبت عدداً كبيراً من المشاركين .. والأيام المفتوحة والعروض أضفت الفرح على الجميع.

• من أهداف المخيم ربط أبناء الشهداء ببيئتهم وتراثهم واستعادة الذكريات الجميلة عن بطولات آبائهم وذويهم.

على المشاركين، والتي اشتملت على دورات فنية وفعاليات رياضية مختلفة ومنوعة باشتراك العديد من الجهات الرسمية الخارجية التي ساهمت مع مكتب الشهيد لإضافة أجواء المتعة والتجديد على البرامج التي تم إعدادها ومن تلك الجهات:

مراكز الشباب التابعة للهيئة العامة للشباب والرياضة التي شاركت في المخيم والتي انضم إليها العديد من أبناء الشهداء ومارسوا فيها هواياتهم وبعض البرامج التي أعدها المكتب في هذه المراكز، النادي العلمي، وزارة الداخلية، وزارة الصحة، الهلال الأحمر الكويتي.

ومن الأنشطة التي قدمت في المخيم الربيعي دورات فنية، هي دورة فن الكروشة، ودورة فن حياكة السجاد، ودورة فن المكرمية، ودورة فن عقد الحبال، ودورة استعمالات الرمل الملون في إنتاج اللوحات، بالإضافة إلى ورشة الطبخ، وكان لهذه الدورات نصيب كبير من المشتركين من أسر الشهداء الذين تعددت فئاتهم العمرية. وكلنا نعلم ما لهذه الدورات من فوائد عديدة على الحياة الاجتماعية وعلى الصعيد الشخصي للمشترك.

كما تخللت فترة المخيم أيام مفتوحة احتوت على مسابقات للمشتركين بالإضافة إلى البرامج الترفيهية، كالساحر الذي قام بتقديم العروض السحرية التي أعجبت المشاركين والأطفال ،وكان للأطفال نصيب للتمتع بالألعاب الموجودة في المخيم، واستمتع الزوار بالجو الصحراوي في ظل الجو الربيعي الذي أسعد الحضور.

أما البرامج الثقافية فقد تجلت في المسابقات الثقافية التي تم تنظيمها خلال فترة المخيم الربيعي، فيما تنوعت الأنشطة الرياضية بين كرة القدم وتنس الطاولة وكرة الطائرة والبيبي فوت. وقد لقيت استحسان الشباب وهواة هذه الأنواع من الرياضة التي تم إعدادها وتنظيمها بشكل أمتع المشاركين.

إن حسن تنظيم المخيم والذي تمثل في تنوع البرامج خلال اليوم الواحد بين الثقافة والفن والرياضة والأيام المفتوحة التي تخللت فترة المخيم كان له أثر بالغ في استمتاع المشاركين وتنوع استفادتهم من البرامج المعدة، كذلك كانت هناك عروض للجهات الخارجية المشاركة والتي تمت الإشارة إليها قربت هذه الجهات من أسر الشهداء وعرفتهم بها عن كثب. لقد ترك هذا المخيم انطباعاً طيباً لدى أسر الشهداء، وقد كان ذلك واضحاً من خلال المشاركات ومن خلال الإبداعات التي أظهرتها البرامج من دورات ومسابقات وكان المخيم فرصة للالتقاء بين كل من المكتب والأسر وفرصة للاستمتاع بالجو الذي يتم انتظاره سنوياً لاستعادة الذكريات الجميلة التي كان سببها هذا المخيم.

أما الختام فقد كان تكريماً للجهات المشاركة والفائزين في المسابقات وقد جمع الحفل الختامي جميع المشاركين الذي أبدوا سعادتهم وفرحهم بهذا المخيم ورغبتهم في استمراره سنوياً

طوبى للشهـــداء

● عماد المنصور

عندما يكتب الإنسان عن الوطن تكون أحاسيسه في ذروتها، لأنه يكتب وجدانه الداخلي وحسه الوطني. هذا ما يتوضح للقارئ خلال قراءته لقصيدة «**طوبى للشهداء**»، التي سطرها الشاعر الأستاذ/ يعقوب السبيعي. كلمات قصيدته الوطنية ولحنها د. عامر جعفر بألحانه العذبة الراقية حتى وصلت مسامعنا وكأنها أنشودة تتطاير في سماء وطننا الغالي الكويت.

و «**طوبى للشهداء**» ما هي إلا مفخرة الكويت بشهدائها الأبرار ورسالة للعالم بأن الكويت هي الوجود.

وحين يتبنى مكتب الشهيد هذا العمل الوطني ممثلاً بمركز البرامج الوطنية وذلك لينمي الانتماء والولاء الوطني لدى المواطن الكويتي، فليس غريباً أن نرى العمل وقد أخرجه مكتب الشهيد للمجتمع بأروع صورة وبشكل يرضي طموح القائمين عليه كرسالة للمجتمع الكويتي.

وفي «**طوبى للشهداء**» ينقل لنا الشاعر مكانة الشهداء عند الله سبحانه وتعالى وعند أهل الكويت حين يقول:

طوبى .. طوبى للشهداء ● هم عند الله الأحياء
رضوان الله يظللهم ● والظل من الله ضياء
شهداء بلادي والأسرى ● في القلب هما حزن الأضواء
الله هو النور الهادي ● لجنان الخلد خطى الشهداء

وبعد ذلك ينتقل بنا في صورة شعرية بديعة ترسم وجه الكويت إبان الاحتلال الصدامي الغاشم ويقول:

لمن الصدور تشع بالأنوار ● وتطير نحو مواقع الأحرار
قلب الكويت الحر يرفع صدره ● ليرد بالأضلاع طلق النار
يا نبض قلبي يا كويت لك الفدى ● ولك القلوب تشع بالأنوار

وفي الأبيات الأخيرة يصف الشاعر أمجاد الكويت بأنها مفخرة وبأن الكويت بلاد الخير والعزة إذ يقول:

في أرض بلادي مفخرة ● تصنعها أيد بيضاء
فبلادي وجه مبتسم ● للمجد وقلب وضاء
أمجاد بلادي يرفعها ● الرحمن إليه بكل سماء
يا مهد الأفعال الحسنى ● يا منبع عز وإباء
وكويت الخير إذا نادت ● يسطع في الدنيا الإصغاء

طلبة وزارة التربية وهم ينشدون طوبى للشهداء

الطلبة يتزينون بعلم الكويت

الطالبات يتزين بعلم الكويت

هاجم الإنكليز ووصفهم بالوحشية وخلع الأوسمة التي قلّدوه إياها...

رابندرانات طاغور... شاعر كرس إبداعه

علي المسعودي

قال له غاندي قبل أن ينضم لحركة التحرير: الشعب لا يريد كلامك الجميل بل يحتاج أن يملأ بطونه الخاوية.

كانت شبه القارة الهندية ترزح تحت نيّر الاستعمار البريطاني، وإذ كان البريطانيون في ذلك الوقت يستنزفون خيرات الهند فيشترون مثلاً قطنها بأبخس الأثمان ثم ينسجونه في مصانعهم، وبعد ذلك يبيعونه للهنود أنفسهم بأفدح الأثمان، وكانت الهند أعظم أسواق إنجلترا، أو الدرة اليتيمة في تاج الإمبراطورية البريطانية كما كانوا يسمونها.

كانت إنجلترا تحرص - كما يحرص كل مستعمر - على إفقار الهنود وتفشّي الجهل بينهم، كما كانت تتبع طريقة «فرّق تسُد»، لأن وحدة الشعب تجعله قادراً على التخلص من الاستعمار. وظهر في الهند رمزان من رموز الحرية في آن واحد.

الأول هو «المهاتما غاندي» الذي تمكن بجهاده السلمي الرائع من إخراج الإنجليز من شبه القارة الهندية، وجعل من الهند دولة مستقلة لها سيادتها وكرامتها، والثاني هو الفيلسوف والشاعر والمؤلف القصصي والموسيقي «رابندرانات طاغور» الذي حصل على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩١٣م، فلفت بذلك أنظار العالم أجمع إلى الهند التي كانت شعوب أوروبا - بتأثير من الدعاية الاستعمارية - يحسبونها غارقة في الجهل متناسين أو جاهلين ما للهند من تاريخ عريق في الآداب والفنون والفلسفة.

لقد تضافرت جهود «رابندرانات طاغور» مع غاندي لمحاربة الاستعمار البريطاني وذلك بعد أن اختلفت وجهات نظرهما لبعض الوقت، فحبهما المشترك لوطنهما واستهتار المستعمر بأرواح الهنود العزّل من السلاح، بل عدم اكتراثهم بأبسط المبادئ الإنسانية جعلهما يتناسيان خلافهما لينشدا سوياً مجد الهند واستقلالها.

بداية الحلم

ألّف «طاغور» أول قصيدة شعر نجحت له في حياته وهو في الرابعة عشرة من عمره، وكانت تلك القصيدة تتحدث عن سعادة الطيور التي تنطلق في الفضاء بحرية وسعادة، فلا تعرف الهموم التي يعرفها الإنسان، لذلك تشدو بأجمل الألحان.

وكانت القصيدة تتكون من أربع عشرة أرجوزة، كما كان «طاغور» يحتفظ في بيته بقفص وضع فيه أربعة عشر طيراً من طيور الزينة الهندية التي تعرف باسم «ننجلينا»... وكان يفتح لها كل يوم باب القفص... لتطير في السماء ثم تعود إلى بيتها طائعة.

وكان طاغور قد ألف كتاباً أطلق عليه اسم «جَني الفاكهة» «Fruit Gathering»...

وما بين الرقم (١٤) الذي يتكرر كثيراً في حياته والذي كان يعتبره رقم السعد بالنسبة له، والمعنى الخفي وراء عنوان «كتابه الشهير «جني الفاكهة»... تكمن قصة مؤثرة في حياة «طاغور»... هي قصة حلم زار والده في المنام، وأثر كثيراً في حياة هذا الرمز، فما هي قصته؟

النخلة الرابعة عشرة

ولد رابندرانات طاغور في مدينة «كلكتا» بالهند سنة ١٨٦١ميلادية، وكان والده ثرياً من ملاّك الأراضي، ومتزوجاً من امرأتين أخريين غير أمه، وقد أنجب ثلاثة عشر ابناً وبنتاً قبل ولادة طاغور، لأن ملاك الأراضي يحبون كثرة الإنجاب، حتى يساعدونهم في الإشراف على الأيدي العاملة التي تعمل في مزارعهم.

وقبل ولادة «طاغور» رأى الوالد في منامه حُلماً غير عادي.

رأى في فناء داره الكبيرة ثلاث عشرة نخلة من نخيل جوز الهند قد تقارب بعضها من بعض وتساوت أطوالها، كما كانت كلها في منطقة ظليلة بينما الشمس تشرق على منطقة أخرى مكسوة بالحشائش الخضراء... ولكن المواشي والأغنام لم تكن ترعى تلك الحشائش على غير المألوف في الهند إذ كانت المراعي الخضراء تكتظ دائماً بمختلف أنواع الدواب.

وفجأة - وبينما كان والد طاغور يتأمل في منامه تلك المنطقة التي تغمرها الشمس - وجد نخلة جديدة تنبعث من الأرض وتنمو وتطول رويداً رويداً ثم تخرج منها ثمار مختلفة ألوانها متعددة

لتحرير الهند من الاستعمار البريطاني

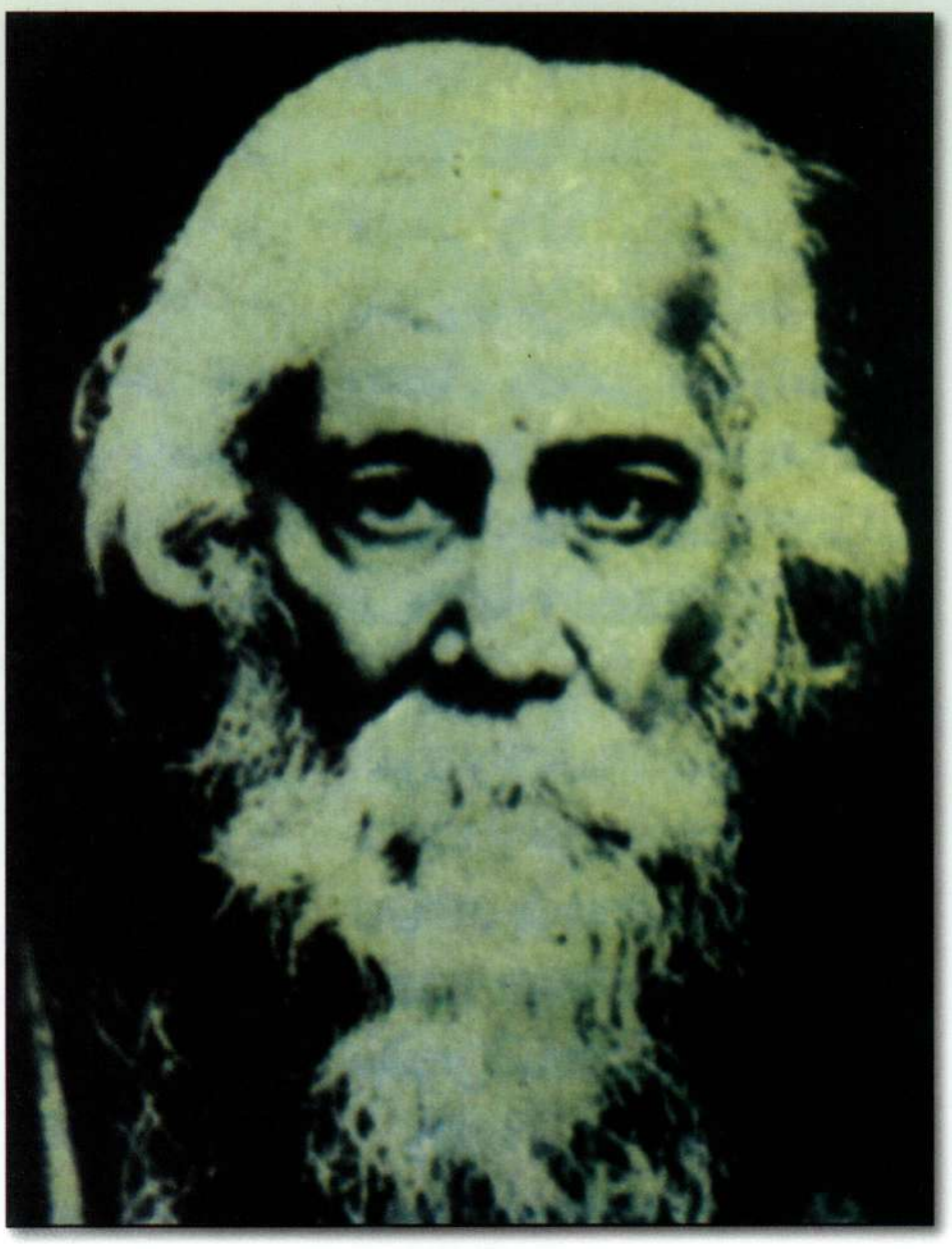

أنواعها، وتزدحم البقعة المشرقة بأناس لا حصر لعددهم وهم يأخذون من تلك الفاكهة العجيبة التي لا تنفد.

وفي نفس الوقت توافدت قطعان كثيرة من المواشي لترعى الحشائش الخضراء.

ولما استيقظ والد «طاغور» من نومه وتذكر ذلك الحلم استبد به العجب.

وذهب الوالد إلى أحد الكهنة وقص عليه ما رآه في منامه، ففكر الكاهن في عمق ثم قال له:

- إن الثلاث عشرة نخلة التي رأيتها في منامك متجاورة متقاربة إنما تعبر عن بناتك وأبنائك الثلاثة عشر. وأما النخلة الرابعة عشرة فهي مولود جديد سترزق به سوف يكون له شأن عظيم.

ثم نصحه الكاهن ألا يعلّم ولده المقبل فنون الفلاحة، لأن النخلة الرابعة عشرة في المنام كانت تنبعث في بقعة مشرقة، ولأن الأرض لا تشرق إلا بنور العلم والمعرفة.

ومن هذا المنطلق، كان طاغور يتفاءل بالرقم (١٤)، ثم ألّف كتابه «جني الفاكهة» امتداداً للحلم بالنخيل الذي رآه والده.

وقد سعى طاغور طوال مسيرته في الحياة إلى الحرية بكافة أشكالها، حرية الكلمة، حرية الرأي، حرية التعبير، وحرية الإنسان، ومن هنا بدأ اهتمامه الكبير بالموسيقى فبرع فيها، ورغم أنه اتجه إلى الرمزية في بعض مؤلفاته وأشعاره، إلا أنه تجنب الرموز الصعبة المعقّدة، وكان يعمد في الكثير من مؤلفاته إلى كتابة بعض مقاطعها باللغة البنغالية السهلة الدارجة، وذلك لكي يتيح الفرصة للخاصة والعامة كي يفهموا ويستوعبوا ما يهدف إليه منها.

كما قام «طاغور» بنفسه بترجمة الكثير من قصصه ومسرحياته إلى اللغة الإنجليزية، سعياً إلى إيصال صوت المواطن الهندي إلى المستعمر، ومخاطبة الإنسان في كل مكان لإشعاره بإنسانية ذلك المواطن.

وكان لمؤلفاته التي ترجمها دوي عظيم في جميع الأوساط الأدبية في العالم، لأنهم وجدوا فيها ألواناً أدبية جديدة ومدارج تخييل خاصة بالحضارة الهندية وبذلك المبدع.

ومن أشهر مؤلفاته التي ترجمها إلى الإنجليزية «الصخور الجائعة» و«الوطن والعالم»... و«قطاف الفاكهة» وكتابه الكبير «عقيدة الرجل» بالإضافة

إلى كتب أخرى.
وأمام اهتمام العالم بأسره بمؤلفات «طاغور» ثم حصوله على جائزة نوبل للآداب، بدأ يدعو إلى السلام الإنساني الشامل، والتعايش مع «الآخر» بعيداً عن العنف، مما أثار حفيظة «غاندي» الذي كان يتبنى الدعوة إلى عدم التعاون مع المستعمرين الإنجليز ومقاطعة كل مصنوعاتهم، ويدعو إلى عدم شراء الملابس المصنوعة في إنجلترا والمصدّرة إلى الهند، بل وحرقها. وقد خلع «غاندي» سترته الإفرنجية وارتدى ثوباً صنعه غزّالٍ هندي... ولم يكتف غاندي بذلك بل اشترى مغزلاً يدوياً وصار يغزل الصوف بنفسه.
وسرعان ما امتلأت الشوارع والميادين العامة بالهنود وهم يشعلون النار بالمنتوجات الإنجليزية، ليفقد الإنجليز أهم سوق عالمي بالنسبة إليهم، وهو السوق الهندي.
كان «طاغور» في هذه الأثناء يعيش بقلبه مع الحركة الهندية الوطنية... لكن فكره مشغول بحلمه العظيم الذي يتمنى تحقيقه، وهو أن يتم الوئام والسلام بين مختلف الأمم والشعوب في العالم ليكون المجتمع الإنساني كله شعباً واحداً.
وحينما رأى «طاغور» الشعب الهندي يزداد حقداً على الإنجليز ويعمد بعض أفراده إلى استعمال العنف - مخالفين دعوة المهاتما غاندي - حينما رأى طاغور ذلك، خالف غاندي وعاتبه واتهمه بأنه يثير الأحقاد وبأنه سوف يحطم حلم البشرية الذي يهدف إلى توحيد الشعوب.
وانتهزت بعض الصحف الهندية الموالية للإنجليز الفرصة فوسعت الخلاف بين الطرفين.
وكان غاندي حاسماً وقاسياً في ردوده على طاغور، ولكنه لم يتهمه بخيانة وطنه، بل اتهمه بأنه شاعر يعيش في أجواء من الخيال ويطير وراء حلمه الكبير، ويتناسى ما يعانيه الشعب الهندي من الفقر والمرض نتيجة استنزاف الإنجليز لكل موارده الطبيعية.
ومما قاله غاندي لطاغور: «إن كلامك جميل، ولكن الشعب الهندي لا يريد الكلام الجميل، فكل هندي يريد أن يملأ بطنه الخاوية، إن الإنجليز يأكلون اللحوم ويتركون لنا العظام، يلتهمون الفاكهة ويرمون لنا القشور... اهبط من سماء خيالك ولو لمدة أسبوع، واختلط بفقراء الهند ومساكينها، أنا واثق من أنك لو فعلت ذلك لكتبت لوناً آخر جديداً من قصائد الشعر. ولعلمت أن الإنجليز - لا نحن - هم الذين يحطمون حلمك الجميل بأن يصبح العالم كله شعباً واحداً... إن الشعب الواحد الذي تحلم به يجب أن تتوافر فيه المساواة والإخاء والعدالة، إن هذه الأمور من المستحيل أن تتحقق مادام الإنجليز بغطرستهم وبعدهم عن أبسط مبادئ الإنسانية، يعتبرون أنفسهم أسياداً، وينظرون إلينا كمجرد عبيد مسخرين لخدمتهم وإثرائهم».
وقد كانت لردود غاندي أبلغ الآثار على تفكير «رابندرانات طاغور»...
إنها - كما قال هو نفسه بعد ذلك - أيقظته من حلمه الذي كان يعتبره جميلاً، ولكنه في الواقع كان كابوساً مزعجاً بالنسبة للشعب الهندي.
وحدث بعد ذلك أن هاجم الجنود البريطانيون عدداً من العمال الهنود العزّل من السلاح لإضرابهم عن العمل في أحد المصانع البريطانية، فقُتل وجُرح الكثيرون من الهنود.
وما إن سمع «رابندرانات طاغور» بهذه المذبحة، حتى هاجم علناً الإنجليز ووصفهم بالوحشية وخلع الأوسمة البريطانية التي كانوا قد قلدوه إياها، وذهب «طاغور» بنفسه إلى دار المهاتما غاندي ومعه عدد من رفاقه.
وفوجئ غاندي بحضور طاغور، لأن الخلاف كان مازال مستحكماً بينهما وكان غاندي يعرف عن طاغور عناده واعتداده برأيه، ولم يكن يتوقع أنه سيخضع لوجهة نظره.
وما كاد طاغور يدخل إلى الردهة التي كان يجلس فيها المهاتما غاندي مع بعض رفاقه حتى صاح بصوت عال:
- جئت إليك لأعتذر، إن الإنسان إذا عرف أنه على خطأ ولم يشأ الاعتذار عن ذلك الخطأ، كان إنساناً جباناً، إني أعتذر لك أمام الناس، لقد كنت مخطئاً في وجهة نظري، وسأكرس قلمي وعقلي وقلبي وحياتي كلها بعد ذلك لخدمة قضيتنا الوطنية، ولن تهدأ لي ثائرة إلا بعد أن يطرد آخر جندي بريطاني من الهند!.
وما كاد غاندي يسمع منه ذلك حتى اندفع إليه... وتعانق الرجلان ودموع التأثر تفيض من أعينهما.
وقال له غاندي:
- كنت أعرف أنك رجل وطني عظيم، ولم يتزعزع هذا الاعتقاد لديّ لحظة واحدة، على الرغم مما نشب بيننا من خلافات في وجهات النظر.
ومنذ هذا اليوم أوفى «رابندرانات طاغور» بوعده وألّف عدداً كبيراً من الأغاني الوطنية الحماسية التي وضع بنفسه ألحانها، كما سبق أن ذكرنا، والتي سرعان ما رددتها كافة طبقات الشعب، وكانت من أهم العوامل التي ساعدت على إشعال جذوة الروح الوطنية في الهند... ومن ثم تحريرها فيما بعد.

• مذبحة الجنود البريطانيين للعمال الهنود المضربين كانت نقطة التحول في موقفه من الصراع بين السلاح والحرية.

• توجه إلى غاندي معتذراً عن مواقفه السابقة... وهو يقول: الجبان هو الذي لا يعتذر عن خطئه.

أميـرة حـزني

شعر: سامي القريني
«مهداة إلى روح جدتي»

الهوية

أينَ صُبْحُك ..؟
زَقْزَقَةُ العُشْبِ في مُقْلَتَيْكِ ؟
خَرَائِطُ صمتك ؟
أينَكِ يا ذهبَ الروحِ يا غاليةْ
لو تعودين لي مرةً ثانية.
أنتِ يا لثغةَ العُوْدِ في إصبعي ..!
آهِ لو كنتِ هذا الصباحِ معي !
قد تكون دموعي قليلةَ ..!
ولكنِ في القلب .. في الروحِ .. في العينِ..
من ثمَرِ الحزنَ ألفَ خَميلَة

الشبابيكُ دامعةٌ يا حبيبة ..
والنجيماتُ في الليلِ عطشى غريبة
وروحي كئيبة ..
والمرايا تُسَامِرُ أطيافَها في غيابِكِ
يا نكهةَ البيتِ يا جدّتي
أنتِ يا جنَّتي
سامحيني .. تكبّرتُ أدري
تجبّرتُ أدري
إلى أينَ أذهبُ ؟ عمري جحيمُ
وجرحي أليمُ !!
سلامٌ عليكِ .. أيا جدّتي
يا عباءةَ قلبي ونجمةَ دربي وشمعةَ حبي
سلامٌ على كل عرقٍ بجسمكِ أرضعَ أمي
وخضَّر جسمي ..
تعالي إليَّ
فإني أحبكِ أكثرَ مني
سلامٌ عليكِ ..
سلامٌ عليكِ ..
سلامٌ عليكِ ..
أميرةَ حزني.

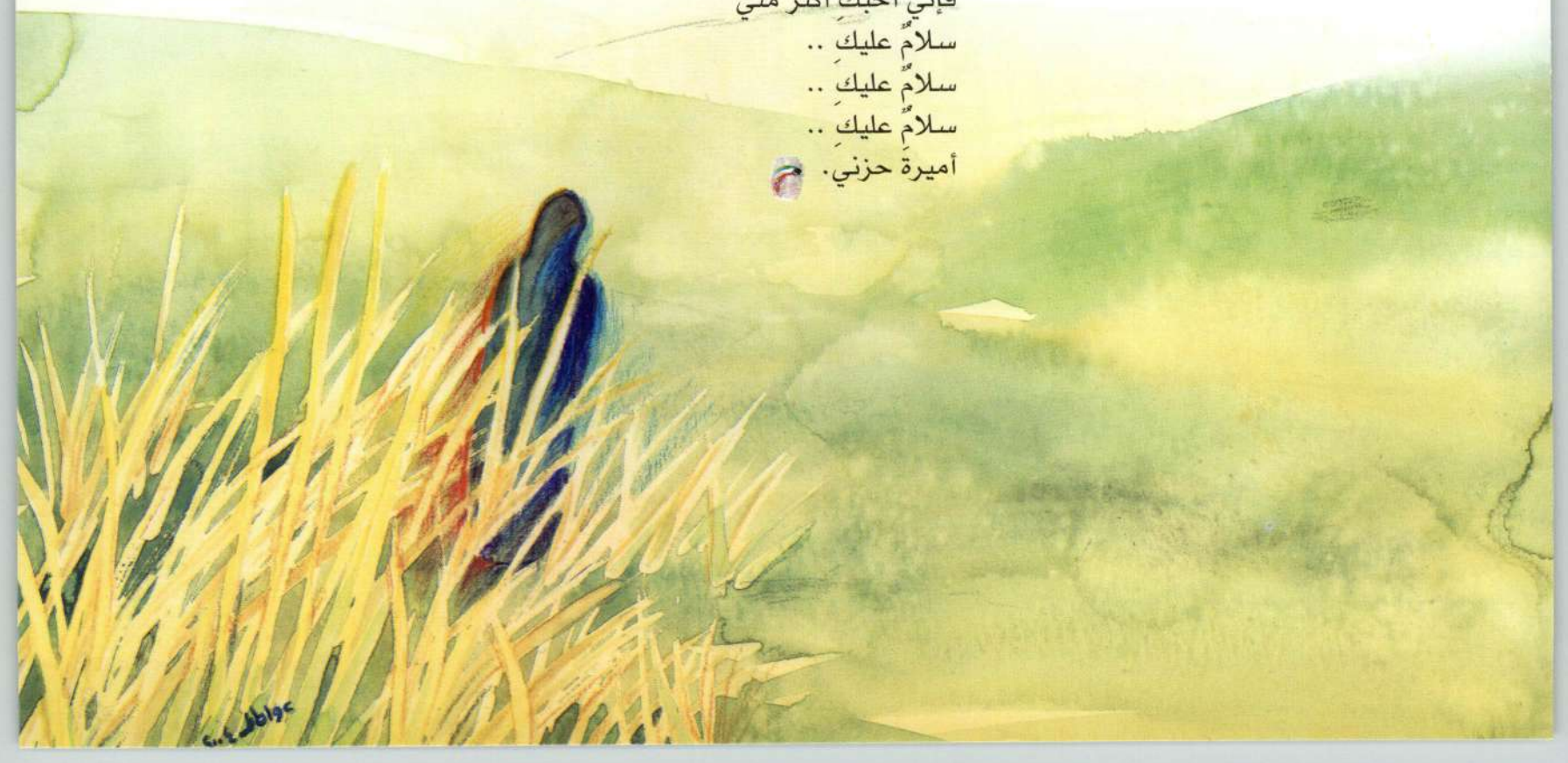

يا دِيرة الحدود
مفتوحة الحدود
لطالب الأمان

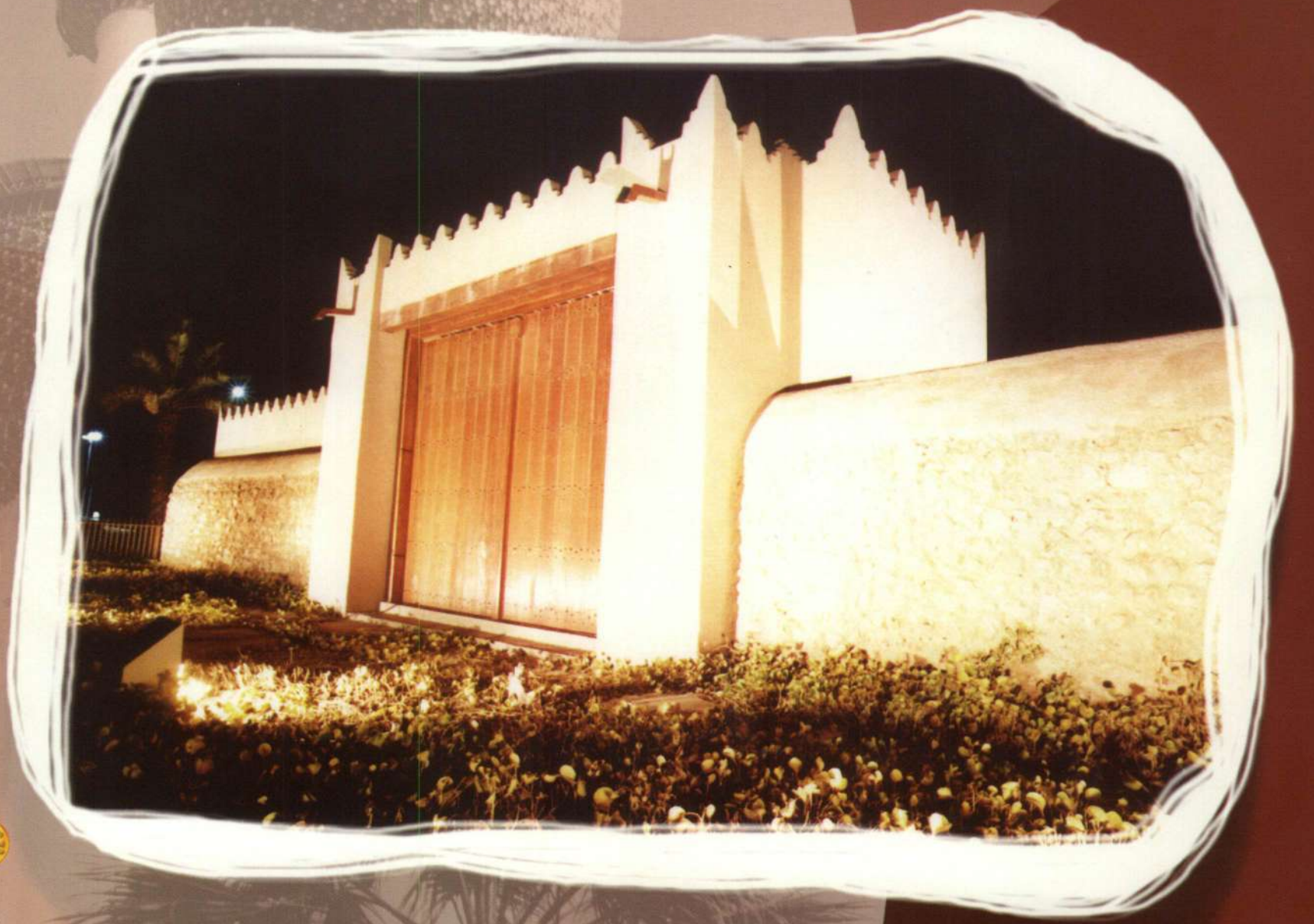

مطابع الرياضي - ت: ٤٨٤١١٢٦ - ٤٨٤١١٧٨ - فاكس: ٤٨١٤٠٦٢

تصميم عبد الله العجيل